
بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطّبع محفوظة للمؤلّفة

الكاتبة انتصار العقيل

الطبعة الثانية

1414هـ/ 1993م

الطبعة الثالثة

2024 م

الغلاف للفنان: عبادة الزّهيري

Email: intisaralaqeel@hotmail.com

انتصار منصور العقيل

موانئ بلا أرصفة

الإهداء

إليك أنت.. أنت من دون البشر..

إليك أنت... أهدي أعمق وأثمن وأعزّ ما عندي...

إليك أنت... أهدي كلماتي وحروفي ونبضي...

إليك أنت... يا من تحمل الآن بحنان وشوق كتابي بين يديك... وتلتهم أسطري بعينيك.

انتصار العقيل

تقديم

بقلم

الأديب السعودي الكبير

الأستاذ عبد الله عبد الجبّار

ما نقرؤه في هذا الكتاب أقاصيص ولوحات وخواطر أشتات... ويرى الكاتب الجهير «محمود السعدني» أن كِتَابها السابق «فيروس الحب» أشبه بمونولوج... فالكاتبة تناجي نفسها وتحاور روحها.

والتهويمات الذاتية والعواطف المتّقدة تجري في النفس لتصب في النفس... وهذا صحيح إلى حد كبير... بل هو طبيعي – غالبًا– في بواكير الحياة الأدبية لأيّ أديب أو أديبة.

ولكن «انتصار» ما لبثت أن خرجت رويدًا رويدًا من قوقعة الذات فسمعت من أحاديث الناس وأسرار البيوت ما سمعت،

وتلقفت الواقع الحي لمجتمعات وبيئات مختلفة من الصحف والمجلات وسائر وسائل الإعلام، وحيث أصبح لها قرّاء يتشوقون لزاويتها الخاصة بإحدى المجلات العصرية الناجحة كان بينها وبينهم من التجاوب الفكري والنفسي والعاطفي ما جعل تجربتها تزداد ثراء يومًا بعد يوم، والقارئ الواعي مُعلِّمٌ كبير لكاتبه الأثير، وإن كان يتعلم منه!

أن يغرس الكاتب أسنانه في لحم المجتمع الحي، معناه أن يتذوق طعم الحياة حلوّها ومرّها كما هي في الواقع... لا في سبحات الخيال... بل إن في أحداث الواقع ما قد يفوق الخيال.

عربيد ساقط، هوايته وحرفته الصيد الحرام والمتعة الحرام، وتمضي الشهور والسنون وهو غارق في شهواته ونزواته ينتهك الأعراض مع رفاق السوء غير عابئ بوازع من خلق أو دين أو ضمير... وذات يوم – وهو يُمَنِّي نفسه بمتعة جديدة وصيد جديد– إذا هو وجهًا لوجه أمام... أو... يا للفضيحة! ويا للهول، لقد كان على وشك أن ينتهك عرض نفسه! إذن لقد انهارت أسرته... ما السبب في انهيارها؟ ما مصيره؟

جلطة في القلب أو في الدماغ تقضي عليه وشيكًا... وربما ينتحر... وأهون عقاب أن يصبح مجنونًا لأنه حينئذٍ لا يعي! أما أقسى عقاب طبيعي فهو أن يبقى في حالة تمزق مستمر يتجدد فيه الجنون كلما تجدد به الوعي، ويتجدد فيه الوعي كلما زايله الجنون! إنه الكاسر الأسطوري الذي ينهشه حيًّا، فإذا انتهى لحمه وظن أنه سيستريح بالموت عاد إليه لحمه ليعود النهش من جديد.

حقًّا! إن الحياة أكبر كاتب قصة!

إذا كانت «انتصار» تصوّر بعضًا من خواطرها النفسية بأسلوب المتكلم، فإنها أصبحت تصور بعضًا من تجارب الآخرين بالأسلوب ذاته، فلديها قدرة على التقمص حتى لكأن جحيم الآخر جحيمها وجنّته جنتها... وقد تتحدث عن ذاتها أو غير ذاتها بأسلوب الغائب!

وموهبة القصة لديها واضحة، تكثِّف الحدث وتصل إلى غايتها بطريقة مدهشة في بعض الأحيان كأن تفاجئك بما لم تكن تتوقعه كما في «ابنة الطبيبة» فتسعد بصنعتها وذكائها. ولا أريد أن

ألخّص الأقصوصة وأكشف سرها، وإنما أريد أن تقرأها وتستمتع بها وبمثيلاتها كما استمتعت.

وقلما نجد أقصوصة تركّز فيها الأحداث فتشعر بأنها تكثيف أو تلخيص لقصة طويلة... وبعض الكتّاب يفعل ذلك خطأ، إذ المعروف أن الأقصوصة تعالج موقفًا، وكل جملة محسوبة بدقة في هذه الشريحة الصغيرة لتحقق الهدف الذي يريم إليه الكاتب، فلا مكان لأحداث أو أفكار تموج بها الحياة الطويلة.

وربما اعترض عليَّ معترض بأن «نجيب محفوظ» الكاتب العالمي الحائز على جائزة «نوبل» في الأدب لعام (1988م) نشر أول أقصوصة له بعد نيله الجائزة في المصور تحت عنوان «عندما يقول البلبل لا» وهي تصلح أن تكون قصة طويلة... أفلا يكون «نجيب محفوظ» قدوة للآخرين في هذا الموضوع بالذات... والجواب أن هناك فرقًا بين تلخيص أحداث طويلة في أقصوصة، وبين أن تكون القصيصة صالحة لأن تكون قصة طويلة... فنجيب محفوظ لم يكثّف أحداثًا كبيرة كل حدث في سطر أو سطرين أو سطور...

وإنما ذكر الهياكل الرئيسية ومحطات صغيرة تخدم الغرض وتبرز الموقف، وهو رفض البطلة الزواج من الرجل الذي تقدم لزواجها!

لقد آن الأوان أن تكتب «انتصار» مجموعة قصصية قائمة بذاتها وتنشرها على حدة، لا قصصًا تائهة بين (أفانين) من اللوحات والصور الأدبية.

ولعل الحيّز الذي تكتب فيه (صفحة واحدة من مجلة اليقظة الغرَّاء) هو الذي يحجزها عن الانطلاق، وفي وسعها أن تكتب الأقصوصة في صفحتين أو ثلاث أو بضع صفحات وتنشرها مرة في الشهر على الأقل بعنوان «قصة الأسبوع أو الشهر»، وحينئذٍ ستهتم بالتنوع أسلوبًا وموضوعًا وفنًّا.

«انتصار الوزير»... عجبًا لماذا كتبت «الوزير» بدل «العقيل»؟... الجو الذي أعيش فيه هو جو القضية الفلسطينية... وخطاب أبي عمّار التاريخي في جنيف في ديسمبر عام (1988م) الذي أخزى إسرائيل، واضطرت على أثره الولايات المتحدة الأمريكية أن تفتح باب الحوار رسميًّا مع منظمة التحرير الفلسطينية ما زال يرنّ صداه في قلبي.

لقد كانت «انتصار الوزير» قرينة رمز النضال والاستشهاد «أبو جهاد» عضوًا في الوفد المرافق لياسر عرفات إلى جنيف.. وهي من قبل عضو بالمجلس الوطني والمركزي الفلسطيني... كلمة «انتصار» واحدة واللقبان على وزن واحد...

كنت أريد أن أكتب:

«انتصار العقيل» وأنت تنافحين عن بنات جنسك – لماذا لا تكتبين عن «انتصار الوزير» وحياة المناضلات العربيات سواء استشهدن أم بقين يؤدّين الرسالة الوطنية والكفاح... أمثال جميلة بوحيرد، سناء محيدلي، سهى... طبعًا على رأسهن سميتك يا انتصار... فهي مثلٌ حيّ لما ينبغي أن تكون عليه المرأة العربية والفلسطينية؟

لقد نظم شاعرنا المبدع «غازي القصيبي» قصيدة رائعة عنوانها «ورود على ضفائر سناء» يقول فيها:

أوت إلى فراشها صبيّة

في جيبها وصيّة

وانطلقت إلى الزفاف بالمنيّة

وأصبحت شهيده...

أسطورة فريده

ماذا نقول يا سناء؟

لم يبق ما بين الرجال فارس

فأقبلي...

فارسة النساء

يا أيها الرجال!

تحجبوا!

يا أيها الرّجال

لم تقدروا أن تصبحوا رجال

فحاولوا أن تصبحوا نساء

وحاولوا أن تلدوا

صبيّةً وحيدة

أن تلدوا سناء

وفي المساء

تهمس النّجوم في السماء

تقول: «صارت نجمة سناء»

وفجأة:

تشتعل الآفاق بالنداء

سناء!...

يا سناء!...

وفي ختامها يقول:

ويكتب التاريخ في دفتره

المزحوم بالأسماء والأشياء

أنا ولدنا كلنا

حين انتهت سناء[1]

(1) «ورود على ضفائر سناء»، شعر غازي عبد الرحمن القصيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م.

إن «غازي القصيبي» شاعر يفتخر به الأدب الحديث كله من المحيط إلى الخليج!

إن مما يعوق الكاتب أن يجعل همّه ألّا يكتب إلّا شيئًا جديدًا... وهذا الهاجس لو سيطر على أي أديب لقلّ نتاجه... حتى النضوب.

ولعل مما يقلق «انتصار» أن بعض هؤلاء المكافحات قد كتب عنهن من قبل... ولكن اختلاف النظرة والزاوية والمشاعر الخاصة تجاه الشخصية تجعل كاتبًا يختلف عن آخر، وإن كان الموضوع واحدًا... والنبراس الذي ينبغي أن يهتدي به الأديب هو قول «جوته» العظيم:

«إن معظم الكُتّاب ذوي الأصالة لم يكونوا هكذا لأنهم يقدمون ما هو جديد، وإنما لأنهم يصوغون ما عليهم أن يقولوه بحيث يبدو كما لو كان لم يُقَلْ قطُّ من قبل».

قيل لانتصار: «اقرئي الرافعي» فقرأته، ولعلها اهتمت بوجدانياته كأوراق الورد والسحاب الأحمر ووحي القلم ورسائل الأحزان أكثر مما اهتمت بكتبه الأخرى.

ينتمي الرافعي إلى مدرسة الترسّل التي تتجه وجهة البيان المشرق. وتضم المنفلوطي والرافعي والبشري والزيات ولكل منهم خصائصه، بيد أن الرافعي «أعمقهم فكرة وأبعدهم غوصًا... تتوالى معانيه في براعة ومقدرة، وقد أوتي تحليلًا فلسفيًا يكشف الغوامض وخيالًا شعريًّا يبعث البهاء والجلال والروعة فيما يكتب، وإذا دقّ حينًا وغمض فلأنه نسيج وحده وفريد نوعه»[2].

والرافعي – لأن الله كرّم سمعه عن الخنا وحماه من الضجيج– أصبح عميق التفكير يستشف الأغوار، لا تصده مزعجات الأصوات عن التأمل و(التعمق) حتى لكأنه يريد أن يرى أبكار المعاني سابحات في أعماق الظّلام. ومن هنا كان بعض الغموض في أدبه، وليس في وسع أحد أن يقلده فيه على وجه سليم لأنه غموض ناتج عن هذه الحالة الخاصة، ومع ذلك فهو غموض الإبداع، لا الغموض لذات الغموض الذي يمارسه بعض المحدثين من الأدباء.

---

(2) مصطفى صادق الرافعي، المدافع عن الإسلام وعبقري البيان، للدكتور محمد رجب بيومي، جريدة الندوة 18 جمادى الأولى 1409هـ.

ولم تتأثر انتصار بالرافعي في هذه الناحية، فأسلوبها ليس فيه غموض؛ بل هو واضح كل الوضوح... وليس معنى الوضوح الركاكة والابتذال؛ بل معناه الإشراق والجمال... وبأسلوبها في بعض الأحيان مسحة شعرية ربما أوحت بها قراءتها للرافعي أو لغيره من الأدباء أو هي نابعة من نفسها عززتها تلك القراءات.

وربما وجد بعض الفاحصين في كتاباتها تشبيهًا هنا أو استعارة هناك بها أثر الرافعي.... وهي قليلة جدًّا اندست في ثنايا ما تكتب وهي بها أعرف.

أما أسلوبها التعبيري، فهو أسلوب عصري رشيق يتراوح بين الانسياب والتوتر، وهو أسلوب سائد بين كوكبة من الذين يكتبون في الحب والعلاقات الاجتماعية بين الجنسين، وربما تشابهت بعض المفردات والتراكيب... فبعضهم يتأثر ببعض... وربما وصل النابغون والنابغات إلى الفرادة!

ولنقرأ هذا النص الذي اختارته «انتصار» للرافعي في ختام لوحتها «مارد الانتصار» لنعرف ذوقها في الاختيار:

* من كنوز الفكر... «لا يصح الحبّ بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر يا أنا... ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين حيث يقع – أعنف ما في الخصومة. إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة، وأكبر خصمين في عالم النفس: متحابان تباغضا!»[3].

وحينما يُذكر الرافعي في بلادنا، سرعان ما يثب إلى الأذهان «محمد حسين زيدان» هذا الاسم المدوي في الصحافة والإذاعة والتلفاز.

لقد عشق الرافعي وتأثر به... علّمه الرافعي أن يعشق الكلمة ويطرب لجرسها. يقول: «طربت لهذا القلم (يقصد كلمة أستاذه السيد أحمد صقر) حتى إذا قرأت الرافعي مصطفى صادق عشقت الكلمة أطرب لجرسها. فإذا الرافعي رافد سخيّ كأنما كل الروافد التي ارتويت منها جمعها لي، فإذا أنا معه في «نهج البلاغة» و«البيان والتبيين» و«كليلة ودمنة» وأصحاب الترسل وفحول الشعراء، أمتع نفسي حين يطربني جرس الكلام».

---

(3) نقلنا نص الرافعي من مجلة اليقظة.

«إن الرافعي وأمثاله يقرأون بالأذن، فالجرس هو عطاء التفهم لفهم الكلام»[4].

الجملة المموسقة أو العناية بالتنغيم ميزة واضحة في أدب الزيدان، لكنها ليست كل شيء فهناك الأفكار المحلّقة والخواطر المجنحة... الفكر والخيال معًا في إيجاز.

سمعته مرة يصف أحد الأشخاص فيقول: هو من الذين لم يعوَّجوا ولم يعوِّجوا «كلمة تعدل مقالة».

* من تصوراته البديعة: «الأنثى الأمومة تحترم الذكر الفحل لأنه الأبوّة، وترحم الذكر الطفل... لأنها الأمومة!».

«ليس هناك من يغضب الحليلة إلا الحليلة».

«أسعد أيام الضعف ما كان يصدر عن قوة الحب، وأتعس أيام القوة ما كان يصدر عن ضعف الكراهية».

«الأباطرة كانوا يحتكرون الموبقات فأصبح السماسرة أباطرتها».

---

(4) ص9 «خواطر مجنحة»، لمحمد حسين زيدان، الطبعة الأولى، 1404هـ/1984م، ط1 جدة – تهامة للنشر.

«كان حمزة شحاته يضيق بالعيش أحيانًا، فكتبت إليه: تريد أن تكون عدمًا في الحياة وأنت حياة في العدم».

من مميزات الزيدان ذاكرته القوية... والذاكرة الخصبة في حد ذاتها ميزة كبيرة غير أن الزيدان جعل منها ميزة أكبر بطاقته الفكرية والفنية، فإذا هو يروي الحادثة الواقعية أو التاريخية لا يكاد ينقص من جوهرها شيئًا، لكنك تشعر كأنها جديدة وكأنك لم تقرأها أو تسمعها من قبل، وهذا سر نجاحه المتفرد في الإذاعة والتلفاز.

على أن أهم ما يميزه «هذه الخصوصية» فحين تقرأ كلامًا لم يذيل بتوقيعه تقول على الفور: «هذا هو الزيدان».

كل كتّابنا الكبار جديرون بالدراسة، والزيدان على رأسهم لأنه أكثرهم تفردًا في الأسلوب. ومن ثم فإني أدعو صديقه الروحي صاحب الكلمة الأنيقة والقصص الرائعة والحائز على جائزة الإبداع الكاتب الفنان عبد الله جفري ليكتب لنا بحثًا مستفيضًا عنوانه «الزيدانية: طريقة مميزة في التصوير والتعبير»، فمنذ عهد بعيد استطال الزيدان وأضحى ينشر علينا حريره الأدبي الخاص ولم يعد «دودة القز» التي خرجت من شرنقة الرافعي.

***

«عذرية المرأة ليست في جسدها... الذي قد تسلّمه دون طوعها بشهادة شاهدين ومأذون... إنما عذرية المرأة في قلبها وروحها وفكرها... فإن لم يلمس الرجل القلب والروح والفكر فهي امرأة ما زالت بكرًا».

هذا هو «مسك الختام» للأقصوصة الرائعة التي عنوانها «إني أرفض هذا الزواج» فلتقرأها في جوّها المأساوي، ولا أستطيع أن أذكر هنا سوى هذين السطرين: «الآن هي تقف أمامه ويملؤها شعور بأن حياتها أصبحت أرضًا يدعس فوقها هذا الرجل بحذائه، ونظرت إلى الفراش، هذا الفراش هو فراش أختها وأغمضت عينيها، تركته يجوس في جسدها.... وقامت تتقيأ كل ما في داخلها... تتقيأ ظلمها ووجعها!».

للشاعر المهجري الرقيق «نسيب عريضة» بيت من الشعر قيل ويمكن أن تقول فيه: إنه بيت يعدل قصيدة، وأن أي شاعر كبير يتمنى أن يكون قائله ولو تخلّى عن كثير من شعره، وهذا البيت هو:

كم مومس تمضي عذراء للرمس

إن المفارقة الكبيرة بين «مومس» و«عذراء» لا يستطيع الربط بينهما إلا شاعر عظيم مثل «نسيب عريضة».... أو غيره إن كان مسبوقًا.

ونحن نعلم أن المرأة التي سقطت في حمأة الرذيلة، لم يسقطها في غالب الأحيان إلا الرجل... صحيح أن المرأة كما يبلور رسالتها شاعرنا الكبير «حمزة شحاته» «أحبولة الطبيعة»، فالإنجاب مركوز في فطرتها ليعمر الكون بالنسل، ولكن شتّان ما بين رسالة الأمومة الخالدة وبين معنى السقوط الذي يحفر حفيره ذلك الرجل الحيوان.

المرأة المغلوبة على أمرها – وقد سدّت أمامها طرق الفكاك والانعتاق من مصيدة الرجل– لا تمارس معها الفحشاء إلا جسديًّا وهي مرغمة ودون أية استجابة، أما روحها فطاهرة... إذن فهي عذراء الروح، ونفسها نقية فهي سامية الجوهر:

والجوهر السامي يبقى بلا رجس

بعض الأزواج ساديّون يتسلطون على زوجاتهم بالعذاب النفسي والجسدي، إلى درجة لا تحتملها الطاقة البشرية... ولو أمكن للمرأة حينئذٍ أن تفتكَ بزوجها المفترس لفعلت ولكن أنّى لها ذلك.

إن المرأة التي تغتصب مرة في حياتها تتعقد وقد تكره الجنس إلى الأبد، وقد يصيبها الجنون... فكيف بهذه المسكينة التي يغتصبها هذا الوحش الآدمي كل ليلة... كل ليلة... تحت ستار ورقة اسمها الشرعية.

ويقفل في وجهها كل أبواب الخلاص فلا خلع ولا طلاق... ولم يبق إلا الانتحار وللأسف أن هذا يحدث في واقع الحياة... لا في خيال الأدباء.

***

في خاطرتيها «الأحزان لا تلد سوى الأحزان»... و«رحلة في الأعماق» نشعر بأن الرومانسية الحزينة الباكية قد واكبتها من صباها الأول حتى صباها الثاني، ولكنها قد تغالي في وصف الحزن حتى أن «قطرة من هذا الحزن الساكن في هذا القلب كافية أن تغرق العالم»؛ أي: امرأة في جلدك! بل أي أيوب تقمص جسدك؟

ولعل مما يخفف هذا النقد أنها بدأت عبارتها تلك بكلمة «يخيَّل إليَّ».

وأخرى أنها تستعمل في التعبير عن سطوة «الحزن» وهو شعور معنوي العبارات التي لها دلالات مادية قاتلة في الواقع المتعارف

عليه... «اليوم شرايين العقل انسدّت، وشرايين الفكر نضبت» وندعو الله أن يحميها من انسداد الشرايين، سواء تلك التي تغذي المخ أو القلب!

ومن كلامها عن الحزن: «أنا ما خلقت إلا من ضلع الأحزان... لا بل الأحزان هي التي خلقت من ضلعي... أنا فوق الحزن حزن... أنا فوق الألم ألم... يا صاحبي إني أعترف أن من يولد من رحم الأحزان، يظل طوال رحلة حياته، مخاض أيامه لا تلد سوى أحزان».

«انتصار العقيل» في أحزانها كأنها امرأة تحمل قبرها فوق كتفيها وتدفن فيه نفسها جزءًا جزءًا – كل جزء– ما زال به نبض الحياة وعليه قطرات الدم!

أطفال الحجارة أو «الجنرالات الجدد» الذين صنعوا في سنة ما لم يصنعه العرب في أربعين سنة احتلوا أجهزة الإعلام في العالم تعاطفًا وتشجيعًا وإكبارًا وتأييدًا... أثبتوا أن الحق في أرض الوطن والحياة فيه لن يسقط بالتقادم مهما طال أمد الاحتلال وأن النصر آتٍ بإذن الله.

الانتفاضة معجزة لأنها استخدمت الحجارة سلاحًا ولم تستخدم الرصاص، ولو فعلت العكس لقضى اليهود عليها في بضعة أيام... وينبغي ألا تقف... (يرى «أنيس منصور» أن تقف فترة) وهو رأي متخاذل... كأن «أنيس» لا يعرف طبيعة اليهود الذين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم. وهم اليوم في هذا العذاب الأليم... قلق ما بعده قلق في نفوس القادة والعسكر والشعب، وإحباط في الاقتصاد والسياسة والحرب. أقول «الحرب» لأنهم عاجزون عن استخدام الآلة الجهنمية التي يملكونها، وهذا هو إعجاز الانتفاضة الأكبر!

«أيها المارون بين الكلمات العابرة

منكم السيف ومنّا دمنا

منكم الفولاذ والنار ومنا لحمنا

منكموا دبابة أخرى ومنا حجر

منكم قنبلة الغاز ومنا المطر

فخذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا

وادخلوا حفل عشاء راقص وانصرفوا

وعلينا نحن أن نحرس ورد الشهداء

وعلينا نحن أن نحيا كما نحن نشاء»

(محمود درويش)

استخدم اليهود ما استخدموا من رصاص، وإن سموه بلاستيكيًا، ومن هراوات لتكسير العظام، ومن غازات مسيلة للدموع... بل استخدموا الغازات السامة ضد الأجنّة في بطون أمهاتها، فكم من أم أجهضت!

ولانتصار في لوحتها «وعشقت الحجارة» تعليل لطيف للإجهاض، إذ تقول: (... وعشقت الحجارة أكثر عندما قرأت «حالات الإجهاض بسبب الغاز»... «غول الاحتلال يقتل الأجنّة في الأرحام» فصرخت محتدمة... لا... بل الأجنة تعجلت مخاض أمهاتها فخرجت من الأرحام تتعجل مولدها، تريد هي أيضًا أن تشارك في أعظم انتفاضة... الله أكبر... الأجنّة اليوم أصبحت مردة شرسة تطالب بالأرض والعودة... خرجت إلى النور جثثًا هامدة لكنها ناطقة تصيح للعالم: حتى نحن نتعجل الخروج لنعيد الأرض... لنحارب الصهاينة ونحارب الاحتلال)...!

***

وكما قذفت حجرًا على الصهاينة قذفت حجارة أخرى على «الرجل الساقط...» على المتجنّي على حبيبته.. على الظالم لابنته... على المعتدي على زوجته بالاغتصاب الشرعي، أو بمعاملتها كأنها قطعة جميلة من الأثاث، لا إنسانًا له كيانه وشخصيته ومشاعره (زنزانة من ذهب)... وتمضي في قذف الأحجار مما ستقرؤون في هذا الكتاب، وكأنها ترجم الشياطين...

منذ زمن قرأت سطرًا عن مغامرة الكتابة فحواه: أن العلاقة بين الكاتب والقلم تكون في البداية لعبة وتسلية، ثم يصير القلم عاشقًا... ثم سيّدًا ثم دكتاتورًا!

بيد أن المعشوق قد يملّ مطاردة عاشقه فينصرف عنه إلى شيء آخر أو حبيب آخر يتجاوب معه أكثر... حتى إذا أصبح القلم سيّدًا كانت سيطرته على الكاتب أكبر، ويظل العبد في خدمة سيده مدة طويلة، ولكنه قد يتمرد ويأبق.

أما إذا أصبح دكتاتورًا فلا خلاص... القبضة محكمة، وحالة الكاتب مع القلم حينئذٍ كحال المنوَّم (بفتح الواو) مع المنوم

المغناطيسي: «اقتحم هذه الأسلاك... سر على طرف السطح... اقفز من هذا الجدار إلى الجدار الآخر» فيستجيب كأنه مسيّر وهو في الواقع مسيّر كالمخير، ومخيّر كالمسيَّر.

البهلوان مخيّر يسير على سلك رفيع بين شاهقتين ذهابًا وجيئة معتزًّا ببراعته كأنما يقول: أنا أبرع الناس! أنا أجرأ الناس! لينتزع التصفيق والإعجاب ومع ذلك فشتان ما بين هدف البهلوان ورسالة الكاتب الإنسان!

انتصار، أيتها الكاتبة التي اتخذت من القلم قريبًا وصاحبًا وعشيقًا، سوف يسألك القراء كلما قرأوا زاويتك وسعدوا بها: في أي مرحلة أنت من صحبة القلم؟! ألم تتجاوزي مرحلة العشق؟.... نحن نتطلع إلى آفاق جديدة كما عودتنا... فهل تحققين أملهم أم ترددين مع الشاعر قوله:

فيا دارها بالكرخ إن مزارها

قريب ولكن دون ذلك أهوال!

في مشارف النهاية لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر لأديبتنا «انتصار» على ما أتاحت لي من متعة في قراءة هذا الكتاب قبيل الطبع.

«فيروس الحب» و«موانئ بلا أرصفة» مرحلتان في درب الأدب الطويل، وهو درب غير مفروش بالورود، وبخاصة لمن يتصدى لنقائص المجتمع.

«انتصار» في هذين الكتابين لا تسير بخطوات متعثرة كما تقول هي عن نفسها – وإنما بخطوات أدنى إلى الثبات– وستزداد رسوخًا على مدى الأيام!

بيد أن «الحياة قصيرة والفن طويل... والحكم أو (التمييز) صعب، والفرصة هاربة»!

وفوق ذلك، فإن الأديب الحق مهما ينتج ويبدع ويحقق من الشهرة – يرى أو ينبغي أن يرى أن أجمل قصيدة وأروع قصة وأحسن مقالة، وأفضل مسرحية هي تلك التي لم يكتبها بعد.

إن الأدب – والفن بعامة–كالسعادة دائمًا هناك... دائمًا هناك!

عبد الله عبد الجبار

جدة/جمادى الآخرة 1409هـ

يناير 1989م

انتفاضة عقل

«حبيبة»

■ يحكى في قريب الزمان أن رجلًا وامرأة جمعتهما قصة حب كقصص الخيال، كان لها سماء وكانت له أرضًا، كان لها هواءً وكانت له نورًا، كان لها سلامًا وكانت له حبيبة. وبلا مقدمات فجأة قرر أن يتخلى عنها، قال لها: قررت أن أتزوج من امرأة أخرى.

رجعت المسكينة إلى بيتها شبه منهارة، رمت بجسدها فوق فراشها وخبأت رأسها في وسادتها وهي تجهش في بكاء هستيري مرير، لقد انهار الحب والأحلام والأماني الحلوة، خرج من حياتها خروجًا بلا عودة، سيتزوج من امرأة تملك المال والجاه، وهي لا تملك سوى قلب طاهر صادق وفيّ تقدمه له لكن للأسف هذا القلب لا يكفي طموحاته.

ساعات طويلة ظلت تبكي وتنتحب، وأقبل الفجر، تسللت أشعته إلى غرفتها، فقامت مثقلة بهمومها وأحزانها، لتغسل وجهها، نظرت إلى المرآة، هالها ما رأت، ملامحها ما عادت ملامحها، الفجيعة غيرتها، الحزن رسم خطوطًا من الأسى والمعاناة ما رأتها قط على وجه إنسان، شعرت بآلام كآلام المخاض تعتصرها، شيء ما يتفجر في عروقها وكيانها، في أعماق أعماقها مولود جديد، أحست بأناملها تتحرك بعصبية، أسرعت وأمسكت بورقة وقلم وبدأت ترسم، تنظر إلى المرأة وتجسد هذه الملامح التي تراها إلى أن انتهت، وفي تلك اللحظات شعرت بدوار لكنها قبل أن تصل إلى سريرها وقعت على الأرض مغشيًّا عليها، حينما أفاقت ورأت ما أبدعت أناملها لم تتذكر أحداث فجيعة الليلة الماضية، الموهبة الإبداعية التي تفجرت فيها أنستها كل شيء، أمسكت اللوحة ووقّعت «حبيبة» لم يكن هذا اسمها؟ إنما هذا الاسم الذي كان به يناديها حبيب الأمس، وهذا كل ما تبقى له في داخلها، لقبت نفسها باسم حبيبة اعترافًا منها بفضله فلولا فجيعتها منه لما تفجرت أحاسيسها وموهبتها.

ومرت الأيام سريعة، وذاع اسم «حبيبة» وأصبحت من أشهر الفنانين في عالم الرسم، وسر نجاحها أنها كانت لا ترسم ملامح الأشخاص الخارجية؛ بل تجسد في لوحاتها مشاعرهم وأعماقهم، كانت تنقل خفق قلوبهم في أفراحهم وأحزانهم. وفي أحد الأيام دخلت عليها امرأة تبدو عليها مظاهر الثراء الفاحش، ألقت فوق مكتب الرسامة صورتها الفوتوغرافية قائلة: أنا مستعجلة ولا يمكنني أن أجلس أمامك لترسميني، هذه صورتي، سأرسل السائق ليأخذ اللوحة، متى ستنتهي؟

نظرت حبيبة إلى المرأة وقالت: مهلًا سيدتي من قال لك أني سأبدأ حتى أحدد لك موعدًا متى سأنتهي، يجب أن أشعر بمن سأرسمه، أشعر بأخلاقياته ومشاعره وأتجاوب معها.

وثارت المرأة، إلا أنها أخيرًا أذعنت لرغبة الفنانة، جلست بعصبية وقلق، وبعد فترة ألقت الفنانة بريشتها جانبًا وقالت: آسفة جدًّا، أحاسيسي لا تتجاوب معك.

قامت المرأة ثائرة ساخطة، واستدعت رجلًا من الغرفة المجاورة قائلة: اكتب لها شيكًا بأي مبلغ تطلبه وأعطني إياه أوقعه، أنا ما اعتدتُ أن يُرفض لي طلب.

وبسرعة كتب الرجل الشيك ولم يحدد المبلغ وتقدم نحو الفنانة، لم تصدق عينيها أنه هو، الرجل الذي كان يومًا يعني لها كل شيء، ماذا غيَّره هكذا؟ أهو زوج هذه المرأة أم هو تابع لها، مدت يدها ببطء ومزقت الشيك، وجن جنون المرأة.

خرجت تصيح وتتوعد، أما هو فقد وقف مذهولًا «حبيبة».

الفنانة الذائعة الشهرة هي المرأة نفسها التي تخلّى عنها، ليتزوج تلك المرأة التي ما هي إلا كتلة من التفاهة المتحركة، قال بصوت منخفض مرتعش:

- أنت! أنت حبيبة!؟

أجابته وقد علت وجهها ابتسامة رضا وهدوء: نعم منذ تلك الليلة، ليلة أعلنت لي تخلّيك عني، تفجر من براكين ألمي نبع من العطاء والقدرة الكامنة في أعماقي، سعادتي معك لم تهبني من خلالها شيئًا، بينما شقائي فيك ومنك هو كان نقطة انطلاقي،

كل ألم يصقلنا يفجر طاقاتنا ما هو إلا أمل وسعد ومستقبل مشرق.

نظر إليها نظرة تحمل في طياتها أسفه وندمه، ما أغباه يوم أضاع امرأة مثل هذه المرأة.

تابعت حديثها قائلة: طالما تمنيت أن ألقاك لأشكرك وأعترف لك بفضلك عليّ.

نظر إليها قائلًا: إن كنت حقًّا غير حاقدة عليّ، فإني أرجوك أن ترسميني، أريد أن أغيظ زوجتي اللعينة ولو مرة واحدة.

ضحكت حبيبة وأجلسته أمامها، ظلت وقتًا طويلًا تمسك بريشتها، كان العرق يتصبب من جبينها تنظر إليه، تغوص في أعماقه، وأخيرًا قدمت له لوحة بيضاء لا تحمل سوى توقيعها. نظر إليها مندهشًا.

قالت له بصوت صادق معتذر:

- إني آسفة، آسفة جدًّا لم أجد في داخلك مشاعر ولا أحاسيس لأنقلها فوق لوحتي.

زهرة

لا يهم أن يغتال الآخرون قلوبنا، المهم أن تنطلق مواهبنا وإبداعاتنا حتى ولو من خلال آلامنا.

سيدتي الطبيبة

■ سيدتي الطبيبة أرجوك، هناك أمر يجب أن أطلعك عليه...

توقفت الطبيبة ونظرت إلى السيدة العجوز المسؤولة عن شؤون المنزل وقالت:

- خيرًا، ماذا تريدين؟ بسرعة تأخرت على موعد العيادة.
- إن شاء الله خير، إنه بخصوص ابنتك «أمل».
- «أمل» ما بالها؟ لقد اطلعت على تقريرها الدراسي، جميع المواد حصلت فيها على درجة ممتاز كعادتها.
- لا يا سيدتي الطبيبة، ليس بخصوص الدراسة ولكني اكتشفت للأسف أنها على علاقة بشخص ما.

نظرت الطبيبة إلى المرأة زاجرة حادة:

- مستحيل، مستحيل «أمل» فتاة عاقلة لا هدف لها سوى علمها والتفوق في دراستها.

- لقد راقبتها منذ فترة، كثيرًا ما أسمعها تتحدث بالهاتف وحينما أقترب منها تصمت أو تنهي المكالمة، وبعض الأحيان تدّعي أنها ستذاكر مع بعض زميلاتها، ولكني اكتشفت أنها لا تذهب إليهن، والبارحة أعادت السيارة ورجعت إلى البيت مع رجل غريب.

جلست الطبيبة على أقرب كرسي، وأغمضت عينيها وتنفست نفسًا عميقًا، ثم قالت بهدوء وحزم:

- حسنًا، اليوم في الساعة الخامسة بعد الظهر أرسليها لي إلى العيادة.

في الساعة الخامسة حضرت الابنة إلى العيادة، قدمت لها الممرضة بطاقة برقم دخولها وطلبت منها رسم الدخول، ظنت الفتاة أن الممرضة لا تعرفها، فأخبرتها باسمها لكن الممرضة اعتذرت قائلة:

- إني أعرف من أنت ولكن هذه تعليمات الطبيبة.

جلست «أمل» في غرفة الانتظار لمدة ساعة تقريبًا إلى أن حان دورها، دخلت غرفة الكشف فرأت والدتها الطبيبة تجلس وراء

مكتبها تنظر إلى ملف دونت فيه الممرضة معلومات عن «أمل»، اسمها، عمرها، طولها، وزنها، ضغطها، حرارتها، الأمراض التي أصابتها منذ صغرها. جلست الفتاة صامتة مذهولة لا تجد تفسيرًا لكل هذه التصرفات، رفعت الطبيبة نظرها إلى ابنتها أو بالأحرى إلى المريضة وقالت ببرود:

- هذه أول مرة في تاريخ الطب، يدعو الطبيب مريضًا إليه ليقوم بعلاجه، في المعتاد المريض هو من يسعى للعلاج لكني أشعر أنه من واجبي كطبيبة بعد أن علمت بإصابتك «بفيروس حب المراهقة الطائش»، من واجبي أن أساعدك قبل أن يتفشى هذا الفيروس فيك، ففي اعتقادي أنه ولله الحمد في مراحله الأولى وبإمكاننا أن نقضي عليه.

صمتت الطبيبة تنتظر تعليقًا من «أمل»، لكن الفتاة ظلت صامتة عقدت لسانها غرابة الحديث وأسلوب المعاملة.

أكملت الطبيبة حديثها بصوت جاف حاد وكأنها تلقي محاضرة:

- حسنًا لأكن أكثر وضوحًا، بلغني أنك على صلة برجل، طبعًا يؤسفني سلوكك هذا، بعد أن غرست فيك كل الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، أفاجأ بهذه التصرفات، لا يخفى عليك كم قاسيت وتعبت إلى أن وصلت إلى مركزي هذا وأصبح اسمي أشهر من نار على علم، أنا لم أصل إلى منصبي هذا إلا بكفاحي وابتعادي عن كل ما قد يعيق تقدمي، كنت تسألينني دائمًا في صغرك: متى أنجب لك أخوة؟ اليوم أجيبك على سؤالك، أنا لم أنجب سواك حتى لا تشغلني مسؤولية التربية عن دراستي وطموحي، وحينما خيرني والدك بين الذهاب معه إلى عمله كمبتعث في الولايات المتحدة أو عملي، اخترت بلا تردد عملي، وانفصلنا منذ ستة أعوام بعد أن اتفقنا أن تبقي معي، صحيح أني تألمت لفشلي في حياتي الزوجية لكني لم أندم أبدًا، أحلامي وطموحي العلمي والعملي كانا أكبر من كل شيء في حياتي، الآن أنت ما زلت في أول عام في الجامعة، للأسف تميلين بأهدافك إلى أمور تافهة وتنساقين

وراء عواطفك، إني لا أصدق ما بلغني، لذا أرجو أن تصدقي معي وتخبريني بكل شيء بالتفصيل.

تأملت الفتاة أمها وهي لا تصدق كل ما سمعت وقالت بصوت حزين بعد تفكير عميق:

- نعم سيدتي الطبيبة كل ما بلغك صدق، إلا أني لست في أول مراحل مرضي بفيروس الحب على حسب تعبيرك، إنما أنا في مراحل متقدمة جدًّا، فلو أنت يا سيدتي الطبيبة أخذت الآن تحليلًا من دمي لوجدت أن الحب يسري في كل خلاياه، ولو سمعت نبض قلبي لسمعت خفقاته تنبض باسم الحبيب. أنا آسفة أن أخيب أملك فيَّ، صحيح أن لي عقلًا ذكيًّا يحب العلم ويهواه مثلك تمامًا، إلا أني أختلف عنك يا سيدتي الطبيبة، فأنا لي قلب بجانب عقلي، قلب يريد أن يمارس وظائفه الطبيعية...

صاحت الطبيبة منفعلة من الحديث:

- ويحك ما هذا الذي تقولينه؟ من سمم أفكارك؟ لا بد أنه هو ذاك الغريب الذي دخل حياتك.

أجابت «أمل» بثقة ومباهاة:

- صدقت سيدتي الطبيبة إنه هو من أدخل الحب والحنان إلى حياتي، هو من أعاد الفرح والبهجة إلى أيامي، ولقد قررت بعد هذا الكشف الطبي، قررت أن أخرج من هنا وأذهب إيه، لأعيش معه، أنا سأجمع بين طموحي العلمي ومشاعري. لن أهمل أو أتخلى عن أي طرف، لا العقل ولا القلب.

صرخت الطبيبة وهبت واقفة:

- سحقًا لك، ما هذه الوقاحة؟ ستعيشين مع من؟ بأي صفة يا قذرة ستعيشين معه؟

وقفت الابنة وتوجهت نحو الباب وهي تقول:

- سيدتي الطبيبة، سأعيش معه بصفتي ابنته وهو أبي، سيدتي أنا لا أريدك في حياتي طبيبة، إني أريدك أمًّا، أريدك أمًّا، أريدك أمًّا...

زهرة

■ أستنكر وأمقت التطرف والمبالغة في كل الأمور حتى الحسنة منها، إلا في حبك فإني فيه أتجاوز حدود ما فوق المبالغة والتطرف...

حب بلا اختيار

■ خمسة عشر ربيعًا عمرها، عمر الزهور عمرها، يوم تعاهدت هي وهو على الحب والإخلاص والوفاء واتفقا على أن يكون عشّ الزوجية هو دارهما دار الهناء، هو ابن عمها وهي ابنة عمّه، الحب بينهما لم يكن اختيارًا بل كان أمر حتميًّا، بالفطرة موجود في قلبيهما، فكما تعلّم كل واحد منهما منذ الصغر أن هذا أبوه وهذه أمه وهؤلاء إخوانه وإخوته وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته، كذلك تعلّم هو أن هذه ابنة عمه زوجة المستقبل، وتعلمت هي أن هذا ابن عمها زوج المستقبل. إذن الحب بينهما غرس فيهما، نشأ معهما، فرض عليهما.

خمسة عشر عامًا كان عمرها يوم ودَّعها وسافر ليكمل دراسته، كان هو في الثامنة عشرة من عمره، ودَّعها وكلّه حسرة على فراقها

وقال لها سأعود، سأعود وأنا أحمل شهادتي الجامعية لنكمل مشوارنا معًا عسى الله بعد هذا أن لا يفرق بيننا يا أعز الأحباء، وسافر في كل يوم خطاب، وفي كل أسبوع بالهاتف اتصال، وعاد بعد خمس سنوات وقد اكتظ شاربه واكتملت رجولته وحمل معه شهادة الطب في علم الأحياء، أما هي فقد استقبلته صبية فتية جميلة، هي الآن في السنة الأولى في الجامعة، لا يهم ستكمل دراستها بعد الزواج لكنه قال لها:

- أبدًا، محال قبل أن تكملي دراستك الجامعية وأنا أكمل الدراسات العليا، محال أن نتزوج إلى أن نكمل المشوار.

وانصاعت لأمره واحترمت رأيه، مؤمنة واثقة بحسن نيته. وغاب الأخ في بلاد الغربة ثلاثة أعوام، أصبحت خلالها الرسائل شهرية ومن ثمَّ موسمية، لكنها امرأة عاطفية، وحينما تحب المرأة العاطفية يغيب العقل فيها، وتصدّق كل عذر وكذبة وهمية، خطاب واحد منه يجعلها تجد له بدل العذر أعذارًا ويعود ويتأجج حبه في قلب مليء بالغفران.

وعاد، عاد وقد تغير كثيرًا، يتحدث ثلاث لغات أجنبية بطلاقة وغرور، ولولا الحياء لأنكر لغته الأصلية، «الأستاذ» أعماه عالم الغرب، عالم مزيف كله قشور، عالم بلا أخلاق ولا جذور، ما علينا من أخلاقه التي تغيرت، المهم أنه أعلن أنه سيعود ليحضر الدكتوراه وقال لها:

- ليتك معي، لكن المدة لا تستحق غربتك وابتعادك عن الأهل والأصحاب، كلها عام أو عامان وأعود ونحقق الأحلام.

وسافر وهي من الأحداث مذهولة وعيونها باكية متضرعة له، تصيح بصمت: بالله عليك، خذني معك، حبك الذي رضعته دون إرادتي مع لبني من ثدي أمي، يؤلمني يرهقني يكبّلني، أرجوك أستحلفك بالله خذني معك.

لكن هيهات من يسمع؟ من يجيب؟ من يشعر بإحساس امرأة سجن قلبها في زنزانة حب بلا اختيار.

سافر ابن العم وغاب في بلاد «العم سام» أربعة أعوام، خلالها حصلت هي على شهادة الماجستير، وعملت معيدة في الجامعة،

وفوجئت في أحد الأيام بمن يقول لها: قومي، قومي بسرعة يا فلانة فلان عاد.

وكأن دورة الدم في شرايينها كانت مجمدة طوال هذه الأعوام، وها هي فجأة تتدفق في مجرى عروقها فتعيد لها الحياة، أسرعت تجري ملهوفة تدق بابه، لقد عاد أخيرًا وحقق طموحه العلمي، الآن هي متأكدة أنه سيفي بالعهود.

ودخلت إلى داره تصيح كمراهقة مسرورة مبتهجة: مبروك مبروك الدكتوراه ومبروك درجة الامتياز.

ورأته أمامها فإذا هو يحمل طفلًا رضيعًا ويمسك آخر بيده اليمنى ووقفت بجانبه امرأة أكبر منه سنًا، يا صدمة العمر وصفعة غدر الزمان، ابن عمها تزوج من بلاد الخواجات.

وسقطت الكلمات صريعة بين شفتيها، وخنجر مفاجأة الغدر طعن الفرحة فاغتالها في عينيها، والدمع تربع متحجرًا مذبوحًا ما بين أهدابها ومقلتيها، لكنها تمالكت نفسها وقالت له بهدوء المستشهد فداء للعزة والكبرياء: مبروك، مبروك يا ابن العم، مبروك الامتياز وحسن الاختيار.

رفع بصره تجاهها، بصر مكتوب فيه فشله وتورطه واعترافه أن اختياره هو أسوأ اختيار، والامتياز العلمي الذي حصل عليه سيظل يدفع ثمنه... ثمن دروس الرياضيات وشرح المعادلات وتلخيص المحاضرات، سيظل يدفع ثمنها طوال عمره لهذه المرأة حينما منحها اسمه وأصبحت حرم فلان، وأنّى له أن يتخلص منها بعد أن أصبح له منها هؤلاء الأطفال.

ولم تنتظر جوابه خرجت مسرعة تجري في الطريق، المسكينة بدموعها تعثرت، بآهاتها تبعثرت، بخصلات شعرها أمسكت وهي تصيح:

- اثنا عشر عامًا وأنا أنتظر وهمًا وأخطط لسراب وأسعى لحلم، لِمَ لم تُعفني من عهدي معك، لِمَ تداريت وراء حبي لتُوهم الجميع أنك في غربتك على صراط مستقيم. ما ذنبي في حب غرس في أعماقي بلا اختيار، لكني حافظت عليه لأني امرأة شرقية والمرأة الشرقية غبية، غبية، طبعها الوفاء والانتماء للعهود والوعود تحت وطأة الخجل والحياء.

وأنت رجل شرقي ما إن يخرج خارج حدود وطنه حتى يهيم مفتونًا بالعيون الزرق والشعر الأشقر حتى لو كانت في عجوز شمطاء وينسى أصالته وينسى عراقته وينسى سحر وجمال العيون السود.

طوال هذه السنوات في محارة حبك تقوقعت في أبراج الإخلاص، انعزلت، كيف تريدني أن أبدأ الآن وحبي لك شهرته وسيرته على كل شفة ولسان؟ ومن سيرتبط بي، بامرأة جسد بلا قلب، فقلبها قد سُلب منها بدون استشارتها وبدون إرادتها وهي ما زالت في المهد، وأعطي لابن عمها بحكم التقاليد والعادات.

زهرة

حبك أنت لا أناقش آلامه وعذابه، لأنه حب النضوج حب الاختيار، فأنت، أنت كل النضوج، كل الاختيار.

... وعشقتُ الحجارة

■ وعشقت الحجارة... عشقت الحجارة... الله... يا سلام... تسلطنت في رأسي العبارة... تعشقت الحجارة عشقًا فرح به القلب فأسرع القلم يعلن على الملأ أحلى خبر... أجمل بشارة... وصدحت مني زغرودة دون أن أشعر... وحملت الدف والطارة... وغنيت مواويل العشق!

إني اليوم أحتفل بعشق الشرف والطهارة... عشقت الحجارة وتمنيت لو استطعت أن أحوّل كل قلب عربي إلى حجر في صلابة هذه الحجارة لأحقق به حلولًا لكل هذه القضايا...

عشقت الحجارة، فمنذ أربعين عامًا في الوطن العربي لم يطالعنا سوى سوء الحظ والنحس والهزائم والانكسار... منذ أربعين عامًا نسينا عراقة تاريخنا... وفتوحاتنا الإسلامية، ونسينا كيف كان

الطفل فينا يملك شجاعة ألف رجل من رجال هذا العصر... اللاهين في بحر مجون الحضارة...

عشقت الحجارة... فاليوم أمسك بها الطفل العربي ووقف بيننا شامخًا... غاضبًا... ليذكرنا بالجهاد.. والنضال... والبسالة!

رمى الطفل الدمى... وحمل الحجارة فإذا به عملاق جبار محارب... يقذف الحجارة في وجه العدو من حارة إلى حارة... يعدو ويصيح... آن الأوان للانتفاضة... آن الأوان لاسترجاع الأرض السليبة... سنعيد القدس والخليل... وحيفا ونابلس... سنعيد كل شبر يا فلسطين بسواعدنا وليس بالاستنكار والشجب والمؤتمرات الرنانة...

آه... ما أحلى الجهاد... ما أحلى الانتصار... أبشر يا قلب أطفالنا غدوا بين ليلة وضحاها رجالًا لا قبلهم ولا بعدهم رجال... وعشقت الحجارة أكثر عندما قرأت:

«حالات الإجهاض بسبب الغاز»... «غول الاحتلال يقتل الأجنة في الأرحام».

فصرخت محتدمة... لا... بل الأجنة تعجلت مخاض أمهاتها فخرجت من الأرحام تتعجل مولدها تريد هي أيضًا أن تشارك في أعظم انتفاضة... ها هي جثث الأجنة تفضح إرهاب اليهود وتفجر حق القضية الفلسطينية... فتوقظ الضمير الغافي من سباته.. وتسطع نارًا في العيون كأنها شرارة.

الله أكبر... الأجنّة اليوم أصبحت مردة شرسة... تطالب بالأرض والعودة... خرجت إلى النور جثثًا هامدة لكنها ناطقة تصيح للعالم: حتى نحن نتعجل الخروج لنعيد الأرض... لنحارب الصهاينة... ونحارب الاحتلال... حثالة البشر تحتل الوطن وأصحاب الحق يعيشون في مخيمات ذليلين مشردين كالبقايا.

اليوم لا بد لنا من صرخة جماعية نجمع بها الشمل... ونسترجع بها الأرض بكل قوة وجدارة... اليوم سنروي الأرض بدماء الشهداء... سينبت نبت الأرض ليدعو لنا بالفوز والانتصار.

آه... كم عشقت الحجارة فهي وحدها من تحدّت وأفزعت العدو والإرهاب... وأدخلت بين فقرات ضلوعه الرعب، فراح ينحدر بأفعاله من نذالة إلى نذالة... حملوا الهراوات.. وألقوا

القنابل المسيلة للدموع وقذفوا بالرصاص المطاطي... وأذاقوا الثوار جميع أنواع العذاب والمرارة... وبالرغم من كل هذا زادت السواعد الصغيرة قسوة... وزادت الحجارة صلابة... وزادت الانتفاضة ضراوة ما بعدها ضراوة!

كيف لي أن لا أعشق الحجارة وهي وحدها من وحّدت الصف العربي... وحرّكت الضمير العالمي... وأعادت لوجوه النساء ملاحتها العربية بعد أن كستها الفرحة إشراقة ونضارة.

كيف لي أن لا أعشق الحجارة وهي وحدها استطاعت بسواعد أطفالنا الصغار أن تعيد لي كامرأة عربية ثوب العزة والنصر والكرامة.

مسك الختام

■ بعد أربعين عامًا أتى الحجر فابتلع الذل والقهر... وخرج الطفل العربي من القمقم ليحقق العزة والنصر... ويعيد الكرامة!

إني أرفض هذا الزواج

■ وانثالت في فكرها الذكريات توجعها، تكويها... صورة وجه أختها الحبيبه ارتسمت أمام عينيها تفتح أبواب الدمع في مقلتيها...

وما إن أوصد باب غرفة النوم عليهما حتى اشتعل إحساس مبهم للثورة في أعماقها يريد أن يتفجر حمم رفض وقذائف غضب لتحطم كل ما حولها، لكن بعد ماذا؟ لقد انقضى الأمر وسُلبت حياتها، وسائل الرفض والاعتراض جميعها هُزمت... الآن هي زوجته، زوجة «زوج المرحومة أختها» شاءت أم أبت، قبلت أم رفضت.

نظرت إلى المرآة ورأت نفسها بثوب الفرح الأبيض... ثوب الأحلام لكل فتاة وصبية، ها هو في عينيها مثل كفن أبيض لف حول جسدها... آه وتلك العربة التي زينت بجميع أنواع الزهور

والورود وأتت بها إلى هذا المكان... تلك العربة ما كانت إلا نعشًا وتابوتًا حملت في داخله لتدفن في هذا القبر...

وفي انثيال هذه الذكريات في ذهنها أتاها صدى صوت أمها برنّته الجبارة:

- «اسمعي إياك أن ترفضي هذا الزواج... رفضك لهذا الزواج معناه حرماننا من أبناء أختك، أتفهمين؟!».

وبكت مترجية مسترحمة عطف أمومة أمها وقالت:

- مستحيل يا أمي أن أرث أختي في زوجها... لقد وعيت على الحياة وهذا الرجل في البيت كأخ كبير لي... رجل يكبرني بعشرين عامًا عاش بيننا اثني عشر عامًا كزوج لأختي وكأخ لي... كيف أحوّل مشاعري نحوه ويصبح زوجًا وعشيرًا... محال، هذا الزواج هو آخرتي... هو قبري... أبناء أختي أنا على أتم الاستعداد أن أهبهم حياتي وأرعاهم لكن دون أن يفرض عليّ هذا الزواج.

صاحت الأم ثائرة تستغل صلاحية أمومتها أسوأ استغلال وقالت:

- زوج أختك رجل يطلب الزواج ويريد أن يرعى أبناءه في بيته... وإن أنت رفضت سيتزوج بامرأة أخرى... ألا تشعرين بحرقة قلبي وأمومتي الثكلى... ألا يكفيني فقدان أختك وهي في عز صباها، أتريدينني أن أفقد أيضًا رؤية أبنائها... ويُمزق قلبي وأنا أراهم تحت سلطة امرأة غريبة تذيقهم معنى اليتم والحرمان... ستتزوجين منه لأجل أبناء أختك... ستتزوجين منه لترتاح أختك في قبرها.

وصاحت وناحت وبكت... كيف يرتاح الأموات في قبورهم على حساب شقاء الأحياء في حياتهم؟ لا أفهم... لا أفهم...

وحينما أتى هو وجلست معه لم تتردد أن تعلن له رفضها وشرحت له وكلها أمل أنه سيفهمها، قالت له والدمع ينساب من مقلتيها يرجوه أن يرأف بحالها وينسحب ويلغي فكرة هذا الزواج:

- أنت لي أخ وهذا الزواج أرفضه لأني لن أكون لك الزوجة التي تتمناها، سأرى أختي في كل ركن، سأكون معك امرأة مشوّهة الإحساس، مشلولة العواطف... أختي تسكن في فكري وقلبي، أرجوك افهمني... لا مكان لك في حياتي.

لكنها صعقت بجوابه السطحي الأناني حينما قال:

- اهدئي، كل هذه الأفكار هي انعكاس لما تقرئين وتتابعين من كتب وأفلام ومسلسلات رومانسية... أنت تتحدثين كأي فتاة في العشرين من عمرها تتحدث بقلبها وليس بالمنطق والعقل...

أختك ماتت... والموت حق علينا جميعًا... الأحياء أبقى من الأموات.

أخرسها جوابه، أي كارثة هذه، أيّ منطق هذا؟ أمها تؤمن براحة الأموات في قبورهم على حساب شقاء الأحياء... وهو يؤمن أن الأحياء أبقى من الأموات... ويح عمري كيف يؤمن كل إنسان منا بمبادئ مختلفة؟ المهم أن تخدم مصالحه وأهدافه الشخصية.

وتم الزواج رغمًا عن إرادتها... وكم فتاة سيقت للزواج كما تساق خراف الأضحية... بلا رأي... بلا ذنب...

الآن هي تقف أمامه ويملؤها شعور بأن حياتها أصبحت أرضًا «يدعس» فوقها هذا الرجل بحذائه... ونظرت إلى الفراش، هذا

الفراش هو فراش أختها وأغمضت عينيها، تركته يجوس في جسدها الهامد... نتن الرجل الذي يجوس في جسد امرأة لا تنفعل بين ذراعيه... وقامت تتقيأ كل ما في داخلها، تتقيأ ظلمها ووجعها... ما أصعب أن تصبح المرأة جسدًا ليس إلا... جسدًا يستغل بحكم شاهدين ومأذون وقلم وورقة... ومرت أيامها ترعى أبناء أختها، بكل حب وعطف... ولكنها كانت في كل يوم تزداد حزنًا وصمتًا وتجهمًا. أما بالنسبة له هو فـ «راحت السكرة وأتت الفكرة» بدأ يشعر أن هذه المرأة مثلجة مبرمجة، وندم على الزواج منها، طبعًا لم يلم نفسه ولم يشعر بغلطته... سيطلقها ويتزوج بأخرى... وخرجت عائدة إلى بيت أهلها ومعها أبناء أختها وهي تتحسس بطنها المنفوخ أمامها... ودموعها متحجرة في مقلتيها، هذه السنة التي عاشتها معه حطمت وضيعت سنوات عمرها القادمة... رغم أنها تشعر أن هذه السنة ما هي إلا أيام باقية عاشتها عوضًا عن أختها في حياة هذا الرجل... حتى هذا الجنين الذي في أحشائها... لا يخصها إنه ابن أختها... ابن أختها...

مسك الختام

■ عذرية المرأة ليست في جسدها... الذي قد تسلّمه دون طوعها بشهادة شاهدين ومأذون... إنما عذرية المرأة في قلبها وروحها وفكرها.... فإن لم يلمس الرجل القلب والروح والفكر فهي امرأة ما زالت بكرًا.

أنين الظلم

■ يا زمن أنين الظلم أرى فيك العجائب.. وأسمع فيك قصصًا أغرب من الغرائب... أحاول أن لا أصدق ما أرى وما أسمع... ولكن كل ما يدور حولي حقائق...

يا زمن يا دوار... ليت أيامك تدور وتكشف ستر كل خسيس دنيء مخادع... ها أنا اليوم أنقل منك فوق أوراقي قصة من الواقع... أضعها أمام أعين قرائي وقلبي يدمى لما فيها من حزن ومصائب!

لن أناقش... لن أعلق... سأترك الحكم لكم... فصدري من أحداث هذه القصة ضائق.

سأروي الأحداث دون زيادة أو نقصان، دون تحريف أو تجريح... إلا أن لسان حالي يدعو: «يا الله أنصف كل مظلوم... وعاقب كل ظالم... يا الله... يا رب كل الخلائق».

اليوم لأول مرة في حياتي أتمنى أن أكون صاحبة نفوذ وسلطة... لكن ماذا يفعل النفوذ والسلطة مع من ماتت فيهم الضمائر!

محور قصتنا اليوم فتاة قدّر لها أن ينفصل والدها وهي ما زالت طفلة رضيعة... تزوجت الأم وتزوج الأب، وتفرغ كل واحد منهما لحياته الخاصة... والطفلة البريئة بينهما لا تستقر في مكان... شهر في بيت أبيها، وشهر في بيت أمها... أسبوع في بيت أمها وأسبوع في بيت أبيها... إقامتها في أحد البيتين تعتمد على روقان مزاج أصحابه... وهكذا تفتّتت مشاعر الاستقرار في أعماق نفسها وضاعت الطمأنينة في سراديب عمرها... تغربت المسكينة منذ طفولتها، ما أصعب حالنا حينما نتغرب بين والدينا... آه منك يا زمن الشدائد... ما أقساك حينما تجعل ظلمنا من الأهل الأقارب... وما إن بلغت الفتاة العاشرة من عمرها حتى أعلن زوج الأم أنه لن يستقبلها في بيته سوى كزائرة وفي الإجازات فقط... وهكذا ألزم الأب بابنته مرغمًا... لا تسألوني هل هذا معقول؟ أنا أخبرتكم منذ البداية أننا في زمن الغرائب والعجائب والمصائب.

زمن وقح يتنكر الوالدان لواجباتهما تجاه أبنائهما سعيًا لراحتهما وسعادتهما الذاتية... زمن أناني بلا فضائل.

عاشت الطفلة أسوأ وأقسى حياة في بيت أبيها... عوملت من قبل زوجة أبيها وكأنها خادمة، حُرمت من الدراسة وتحملت كل الأعباء والمسؤوليات المنزلية... لن أذكر لكم أنواع العذاب والمذلة التي قاست منها الفتاة... ملخص الكلام... المسكينة تيتمت ووالداها ما زالا على قيد الحياة...

المهم ما إن بلغت الفتاة الثامنة عشرة من عمرها حتى دق بابها شاب يطلب يدها للزواج... وتمت الموافقة بسرعة، فبالرغم من أن الفتاة كانت تحمل كل الأعباء والمسؤوليات إلا أن زوجة الأب فضّلت التخلص منها وذلك بسبب جمال الفتاة الذي كان محط أنظار الجميع، فلم يعد أحد يلتفت إلى أختيها اللتين خاصمهما الجمال وغرم بهما القبح... وعادتهما الفطنة وعشقهما الغباء... إلا أن أهم شيء حالفهما هو الحظ... ومن يحالفه الحظ فلا خوف ولا ضرر عليه... وهكذا انتقلت الفتاة لتعيش مع زوجها الذي كان يسكن في فيلا مكونة من طابقين... يسكن مع والديه

في الطابق الأرضي... وفي الطابق العلوي تسكن أخته مع زوجها وأبنائها الثلاثة...

تفانت الفتاة في كسب محبة زوجها وسعت جاهدة لكسب رضا وصداقة أهله، لقد أدركت ارتباط زوجها بهم واعتماده عليهم في حياته... لذا لم تتردد في فعل أي شيء يرضيهم، لتتأكد من استمرار حياتها الزوجية فلم تكن تخاف شيئًا قدر خوفها من الفشل والعودة إلى جحيم بيت أبيها.

لكن ماذا نقول في الحظ؟! نحن قلنا هنيئًا لمن يحالفه الحظ ويا ويل من يُدبر عنه الحظ، وفتاتنا هذه أدبر عنها منذ كانت جنينًا في رحم أمها أو ربما منذ كانت نطفة في صلب أبيها.

آسفة لقد وعدتكم أني لن أعلق أو أناقش... سأكمل الحكاية بلا تعليق... زوج الأخت رجل غابت الفضيلة عن أخلاقه... لمحها ذات مرة فراقت له... فجلس الخسيس يدبر مع نفسه أمرًا خسيسًا مثله، فاغتنم أول فرصة لغياب الجميع عن الدار وبقاء المرأة وحيدة... فدخل عليها محاولًا أن ينال منها... ومن لطف المولى أن عاد الزواج مبكرًا من عمله... ليفاجأ بزوجته وهي تتعارك

مع زوج أخته... ولكن ما إن شعر النذل بعودة الزوج حتى فر هاربًا إلى منزله كأنه لم يفعل شيئًا ومتجاهلًا أن الزوج قد رآه.

عندما عاد الوالدان وعلما بالأمر جلسا مع ابنهم يتشاورون...

وبعد ساعات من المشاورات دخل الزوج على زوجته في غرفتها لينقل لها قرار مجلس الأسرة فقال لها:

- «رغم أننا متفقون بالإجماع على نذالة وحقارة أخلاق زوج أختي... ورغم أننا متفقون بالإجماع على براءتك وأخلاقك العالية... إلا أننا أخذنا أمورًا مهمة بعين الاعتبار... فأختي متزوجة منذ عشر سنوات وعندها ثلاثة أبناء، أما أنا وأنت فلم نكمل معًا عامًا واحدًا ولم نرزق بعد بالأطفال – لذا قررنا أنه محال أن نهدم حياة أختي من أجل حياتي... أنت طالق... طالق... طالق».

مسك الختام

حينما يقبل الحظ تبيض الدجاجة على الوتد

وحينما يدبر الحظ يحكم الحمار الأسد

معادلة حب كيميائية

- نظرت إليه وهي ترتشف «قهوتها البيضاء» محاولة أن تتذوق مذاقها الذي لا مذاق له وقالت له والسخرية تغلف نفسها الثائرة الرافضة لكل ما حولها:

سيدي: إنك تعرض عليّ حبًّا لا مذاق له – حبًّا كهذه القهوة البيضاء التي هي عبارة عن ماء مغلي مع ماء الزهر... حبًّا مثلها بلا لون ولا مذاق ولا هوية ولا انتماء... حبًّا لا أستطيع أن أصفه سوى بهذه المعادلة الكيميائية:

حب على الرائحة + خيال زيادة = شقاء مضبوط + واقع سادة.

الأمومة الثَّكلى

■ يا صبر السنين الضائعة، يا علقم القهر... يا مرض ووجع أغلى الأحبة لنا، يا أصعب وأقسى وجع... يا نفسًا بائسة حزينة... يا أمًّا ثكلى وما هي بثكلى، لا هي فقدت وليدها لتبكيه ويبكيه معها من حولها... ولا هي أمٌّ مطمئنة ترعى بحنان أمومتها نبتة عمرها وتراقب هانئة نمو فلذة قلبها.

عامان... ثلاثة... أكثر لا تدري، لا تدري، حساب الزمن سقط من ذهنها، مرت سنوات عديدة طويلة بطيئة لا تدري عددها، فالزمن في الفواجع والمصائب والأحزان يتوقف بنا، عقارب ساعاتنا تصلب لا تتحرك تنتظر معنا الفرج، سنوات عديدة وأمومة هذه الأمّ في حالة احتضار دائم، وخوف دائم، وترقب مذعور دائم... أعوام طويلة وأمومتها تنزف في أعماق سراديب نفسها

المهزومة وفوق خطوط ملامحها المذعورة، والأمومة حينما تنزف لا تنزف دمًا بل تنزف صديد الدم مشوبًا بلهب مستعر يشعل الحرائق في أيام العمر فيحوّل كل شيء في النفس إلى خرائب وأطلال.

أمومتها في وجعها خرساء بلهاء تتحدث بلا صوت، تصيح بلا صدى، أعوام طويلة وابنها فوق هذا السرير في غيبوبة كاملة بعد أن أصيب في حادث والإصابة كانت في الرأس، ومنذ ذلك اليوم وهو يرقد فوق هذا السرير في غيبوبة كاملة محاطًا بكل هذه الأجهزة. هي أيضًا منذ ذلك اليوم، يوم الحادث المشؤوم وهي في غيبوبة مماثلة تتحرك حركة آلية كجهاز آلي مبرمج على برامج محددة بلا انفعال، بلا مشاركة، فقد تجمدت انفعالاتها ومشاركاتها تجاه كل الأشياء منذ أن تجمدت أمومتها في قوقعة هذه الفجيعة. حينما أصيب ابنها كان جميع الأهل والأصدقاء حولها، الآن انصرف الجميع، تنظر حولها... فجيعتها هانت في عيون الجميع إلا في عينيها، مصيبتها صغرت، تلاشى الإحساس بها في نفوس الجميع إلا في نفسها.

انعزلت عن الجميع، انفردت بابنها وعادت إلى ربها... إلى صلاتها... إلى تسبيحها... أوصدت أبواب قلبها المذبوح... المفجوع في وجه كل البشر أوصدته حتى عن لمسة حنان من حبيب فلن يزيدها الحنان والعطف إلا قهرًا على قهرها... لن تزيدها المواساة والشفقة على ابنها وعلى حالها إلا ألمًا على ألمها.

بعض أنواع الحنان والمواساة ينعكس في نفوسنا المصابة بإحساس مكروه من الشفقة، وآه لا أحد فينا مهما ضعف يرتضي على نفسه الشفقة، يرتضي على نفسه صدقة العواطف.

ها هي الأيام تمضي ويخبو الأمل رويدًا رويدًا ويتحول هذا الجسد الممدد أمامها إلى حقل تجارب لهؤلاء الأطباء، وفي كل يوم يزداد عدد الأجهزة فتراها حول جسد ابنها كأذرع أخطبوط تحيطه من كل اتجاه، وفي لحظات من اليأس والضعف كانت تتمنى أن تمد يدها وتوقف كل هذه الأجهزة، تعطلها – تنتزعها من حول ابنها، تدعه يواجه قدره... ما أفظعها من أفكار، لكن إلى متى... إلى متى سيظل حالهما على هذا الحال! وصاحت باكية ناحبة:

- يا ولدي، أتسمعني! أتشعر بي! كيف أعيدك إلى وعيك، بأي لسان أخاطبك؟! بحنان أمومتي المغتال بين أضلعي، أو بنداء صبر السنين، أو بصراخ عذاب كفاح عقيم شربت صديده راضية ضائعة إلى أن اشتد عودك الأخضر، ووقفت أمامي شابًّا يافعًا؟

وفي لحظة واحدة انتهى كل شيء... أحضروك لي محمولًا، أحضروك لي ممددًا... لا حيًّا ولا ميتًا... لا واعيًا ولا غائبًا... خرجت بعد أن قبلتني مودعًا وفرحة الشباب فيك تصرخ، وضحكة العشرين عامًا منك تصدح... وعدت محمولًا ممددًا...

قم يا ولدي... انهض... كذّب عيني... دعك من هذا المزاح... أرجوك لا تفجع، قلبي فلا يوجد في هذا القلب مكان لمزيد من الجراح.

أنا لست أول أمّ تثكل أمومتها، ولست آخر أمّ بهذا السكين تطعن، لكن إلى متى تظل أمومتي هكذا بين الموت والحياة، بين الوعي والغيبوبة؟

يا ولدي يا حبيبي قم... قم... خذ عافيتي وأعطني مرضك... خذ صحتي وأعطني وجعك... قم يا ولدي، لا أريد منك شيئًا... كل ما أريده منك أن تنهض وبالأماكن يا ولدي أن تتبدل...

مسك الختام

اللَّهُمَّ في الفواجع برّد بالإيمان قلوبنا... وفي النوائب صبّر بالتقوى أفئدتنا... وعلى احتمال فراق الأحبة بذكرك ثبّت عقولنا... واجعلنا يا الله نحتوي محننا لا أن تحتوينا.

الوفاء مَا بين الأسطورة والواقع

■ يحكى أنه في قديم الزمان... في عالم الأساطير والخيال كانت هناك امرأة توفي زوجها... ولما كانت تكنُّ له في قلبها حبًّا عظيمًا، أقسمت أن لا تبرح قبره... وتظل بجانبه إلى أن توافيها المنية...

وهكذا سترافقه في رحلة الموت كما رافقته في رحلة الحياة... حاول أهل القرية أن يجعلوها تعدل عن قرارها، لكن دون جدوى، وفي الفترة الزمنية نفسها... واجه مجرم سفاح القضاء... فحكم عليه القاضي بالموت... وأمر أن تعلق جثته عبرة لكل مجرم وقاطع طريق... على أن يقوم على حراستها حارس متيقظ يراقب الجثة كي لا يأتي أصدقاء المجرم ويأخذوها ويدفنوها، وحذر القاضي الحارس أنه في حالة اختفاء الجثة... فسيتم شنقه وتعليق جثته عوضًا عن جثة المجرم.

جلس الحارس بجانب الجثة المعلقة يراقبها... ويحرسها... وبينما هو على تلك الحال، سمع أنينًا ونحيبًا وبكاء... يدمي القلب... فأثاره حب الفضول... اقترب من مصدر الصوت فوجد امرأة بجانب قبر تبكي وتنوح، وبجانبها امرأة عجوز تحاول التخفيف عنها... سأل الرجل المرأة العجوز «على من تبكي هذه المرأة الشابة؟»، فقصت له ما صار من أمر هذه الأرملة المخلصة المحبة لزوجها الراحل... اقترب الرجل وحاول مرارًا أن يتحدث مع المرأة لكنها رفضت أن تتجاوب معه. وفي الليلة التالية عاد الرجل وقد أوجعه حال المرأة، فراح يلاطفها، ورويدًا رويدًا... تجاوبت المرأة وفتحت صدرها له تشكو له وجع الفراق وهو يهوّن عليها... وفي الليلة الثالثة كان الحديث أكثر انسجامًا وهدوءًا ومضى الليل والرجل والمرأة يتحاوران ويجذبهما الحديث في شتى المواضيع.

فجأة سمع الحارس صوت حركة فقام مسرعًا إلى حيث جثة المجرم فلما يجدها... فجلس يصيح ويولول على حظه العاثر... وما سيؤول إليه مصيره التعس... سمعته المرأة فأسرعت إليه تستطلع

الأمر... حكى لها حكايته وقال: «هذا القاضي إذا قال فعل... وغدًا لا بد وأن يعلق جثتي عوضًا عن جثة المجرم».

نظرت المرأة الصبية إليه بكل هدوء وقالت:

- خلِّ عنك همّك واطمئن... تعال معي واحفر قبر زوجي وعلّق جثته عوضًا عن جثة المجرم.

هذه الأسطورة التي تطعن في وفاء المرأة وإخلاصها على هذا النحو الساخر أنقلها لكم... وأنقل لكم حكاية لكن من الواقع... دون أي تعليق مني!

أحبته وأحبها، وتعاهدا على الوفاء والإخلاص وكان دائم الوعود والأماني لها عن مستقبلهما السعيد معًا في عش الزوجية.

ومضت أعوام على حبهما القوي وكانت ترفض كل عريس يتقدم لها فهي تنتظره هو... إلى أن يكمل دراسته الجامعية... واقترب موعد تخرجه... وفي أحد الأيام أخبرها أنه في تلك الليلة سيذهب مع ذويه لعقد قران ابن عم له... وأثناء الحديث جلسا يتخيلا معًا الليلة التي سيأتي فيها هو وذووه لخطبتها... اقترب موعد تخرجه وفي نهاية الشهر ستكون إن شاء الله خطيبته...

ونامت في تلك الليلة وهي تحلق في سماء الأحلام وتسبح في نعيم الآمال.

في الصباح التالي وفي المدرج الجامعي... صديقاتها تجمعن حول صديقة لهن يباركن لها خطوبتها المفاجئة... اقتربت مع المهنئات تشاركهن الفرحة... الجميع يباركن ويسألن عن اسم العريس... وكم كانت فجيعتها وهي تسمع اسم حبيبها وقد أصبح عريسًا لزميلة لها.

الأسطورة والواقع نقلتهما لك قارئي فاحكم بما تشاء وعلق بما يحلو لك؟

مسك الختام

■ وحبك أنت هو الأسطورة الحلوة التي نصرتني، والواقع المر الذي هزمني.

هب... على هذه العقول!

■ في الأفراح لا أنتقد البذخ ولا الإسراف... ولا أعيب على المحتفلين بأعراسهم المبالغة في بند المصروفات.

لا يهمني إن كان المهر سبائك نحاس أو سبائك ذهب... لا دخل لي إن بلغت قيمة فستان العروس وجهازها مائة ألف أو مليونًا أو عشرة ملايين.

لا يعنيني إذا جاءت زهور «الكوشة» من هولندا أو من تبوك لا أبالي إن كان مصفف شعر العروس فرنسيًّا أو فلبينيًّا... كل هذه التفاصيل هي خصوصيات أهل العرس... وكل إنسان منا أدرى وأعلم بميزانيته وإمكاناته المادية... ونفقات العرس سيتحملها أصحاب الدعوة وليس المدعوون... والمدعوون ليس عليهم سوى أن يلبوا الدعوة ويعيشوا ليلة قد تكون من ليالي ألف ليلة وليلة... والحقيقة بالنسبة لي أنا... فإني أحمد الله على كل ليلة فرح...

وعلى كل ساعة «وساعة صدر»... خاصة في هذا الزمن الذي شحَّ فيه الفرح... وأصبح كالأسطورة نسمع به ولا نعرفه... نتخيله ولا نشعر به... فالقلوب للأسف متخمة بالهموم والعناء... لذا جزى الله خيرًا كل من يدخل السرور والبهجة إلى قلوب الآخرين... حتى ولو من خلال أفراحه وإسرافه وبذخه...

في حالة أن أهل العرس... ممن يضرب بهم المثل القائل:

«تشوف القبة تحسبها مزار وهي داخلها كلها حجار»

بمعنى أن حالتهم المادية لا تسمح لهم بهذا البذخ ولكنهم مشوا في هذا الدرب «مع القوم يا شقرة».

في هذه الحالة «ذنبهم على جنبهم» رغم أنهم أدخلوا إلى قلوبنا السعادة ليلة كاملة... وأدخلوا إلى قلوبهم التعاسة ليالي طويلة.

البذخ والإسراف الذي أستشيط منه غيظًا وغضبًا... ولا أتردد أبدًا في انتقاده وهجاء من يمارسه... هو ذاك البذخ والإسراف في الأتراح وليس في الأفراح... يموت الميت... وأعوذ بالله مما ترى العين من عادات بالية وتقاليد عمياء...

ثلاثة أيام بلياليها – على الأقل– تفتح أبواب دار الميت على مصاريعها... تستقبل المهنئات – عذرًا– أقصد «المعزيات» والحقيقة يحق لي أن أخطئ... فالنساء المعزيات يحضرن إلى بيت العزاء وهن آخر أناقة... فساتين حرير... أحدث موديلات كأننا في عرض أزياء... والبعض تصل بهن الوقاحة فيتبرجن كأنهن في سهرة، المشكلة ليست في المعزيات بل في أهل العزاء... اللواتي من أجل عادات وتقاليد معاقة... ينسين الميت وحزنهن ويصبحن في حالة استنفار لاستقبال الأهل والأصحاب والأحباب... وعليهن أن يجهزن ملابس بيضاء خاصة «بصف العزاء مع طرحها في أسرع وقت».

طبعًا بعضهن في دواليبهن الفساتين حاضرة... أذكر واحدة «مرستكه» كانت تخيط فساتين العزاء عند خياطة مشهورة جدًّا خارج البلد... وتتباهى بالفساتين لأنها تدفع مبالغ لا تصدق. يا لطيف من عقول تسكن فيها البوم والغربان... حتى المظاهر والمباهاة في الموت والعزاء والأحزان!

في بيت الموت استعدادات وترتيبات مذهلة... «صبابات» للقهوة والشاي... امرأة مسؤولة عن «العبايات».

«الشيش» يجب أن تكون جاهزة لأنها ستدور من فم واحدة إلى فم الأخرى طوال النهار...

وجبتا الغداء والعشاء يقدم فيهما ما لذَّ وطاب من أصناف الطعام وعلى المثال: «الششني» وهذا عبارة عن «مربى القرع» الذي يقطع مكعبات صغيرة ويزين باللوز... وهنا أتذكر أن إحدى الأسر اشتهرت بإجادة صنع «الششني» وتقديمه في طعام وجبات العزاء..

فكان بعضهن يتغامزن ويضحكن أثناء التهامه بشهية مرعبة ويتساءلن:

«ترى متى سنأكل مرة أخرى «ششني» آل «.....» مهازل... مهازل... لا أدري لِمَ لا نحترم أحزاننا؟ – فقدان عزيز غالٍ... إغلاق بيت... ترمّل امرأة... تيتّم أطفال... هذه الأمور جديرة أن نعطيها حقها من الاحترام... العزاء واجب على كل مسلم تجاه أخيه المسلم لكن له أصوله... فإن كنا لسنا من المقربين

لأهل الميت فيكفي عشر دقائق مع الاحتفاظ «بالعباية» على أكتافنا، وليس ضروريًّا القهوة والشاي والسواليف... وإن كان الميت يخصنا أو يخص مقربين لنا فما أحرانا بأن نتبع السُّنَّة... فهذا «ترح لا فرح».

سحقًا لنا... بنينا مُدنًا ولم نبن الإنسان... لكن... من يبني الإنسان؟ الآخرون؟! لا... الإنسان هو الذي يبني ذاته...

عادات بالية وتقاليد عمياء لا أقول فيها سوى:

«هب على هذه العقول الفارغة التي تتبعها».

لبنان... يا عروس ورق المربى!

- لبنان الأخضر يحترق، أحراش الصنوبر الزكية الرائحة تشتعل، والأرز رمز خلود لبنان وشموخه وصموده ما عاد رمزًا سوى للفناء والشقاء... شعب آمن يقتل... يجوع... يشرد... يهاجر إلى كل بلاد الأرض... النساء تُرمَّل وتثكل... الأطفال تيتم وتقتل... الفتيات يشوهن ويغتصبن... الشباب يخطف ويعذب... الكهولة تجوع وتحتضر... يا ويلي... يا ويلي... وطن الحب والأمان أضحى وطن الحزن والدمار!

لبنان... اليوم أتيتك أولول فوق الخرائب... وأندب فوق الأطلال... فحربك لا فهمت لها بداية ولا عرفت لها نهاية... إنها حرب الألغاز والمبهمات، لبنان – يا عيني عليك من كثرة المذابح فيك تحولت بيتًا للأشباح!

فيك لا أعرف مَن يحارب مَن... ولا هذه المعارك الدامية لصالح مَن؟! كل الذي أنا متأكدة منه أن أطفالك يرضعون عوضًا عن الحليب من أثداء أمهاتهم يرضعون دم الثأر... فيا حسرتي... ماذا نأمل من جيل سينشأ ليأخذ بالثأر. والثأر ممن؟! لا تسألوني... لا تحرجوني... كيف لي أن أعرف وأنا أضعف خلق الله!

آه... يا وجعي عليك يا لبنان. كيف لي أن أعرف الثأر ممن؟! إذا كان القاتل والمقتول في سويسرا الشرق لا يعرفان لماذا هما يتقاتلان؟!

كَبُرَ جيل... وهَرُمَ جيل... ومات جيل... وخُلِقَ جيل على دوي المدافع وصوت المتفجرات ورائحة عفونة الموت... لبنان... من مات من أبنائك في حربك المجنونة هذه... فقد رحمه الله خالق العباد... أما من بقي على قيد الحياة من أبنائك فهو يموت في اليوم بدل المرة عدة مرات. من ألم ذكريات ماضي عزك الغابر – من فواجع وقائع حاضرك القاسي، من خوف غدر مستقبل سلامك المجهول... متى تعود... متى تعود يا سلام. متى تعود على أرض لبنان الحبيب؟!

في رحى هذه الحرب المسعورة جلس طفل لم يتجاوز السابعة من عمره في زاوية مظلمة متكورًا... في غرفة تفوح منها رائحة المعاناة والجوع والموت... يرتجف خوفًا وجوعًا... جلس وحيدًا ينتظر معجزة... ينتظر عودة أمه التي خرجت منذ الصباح الباكر لتحضر شيئًا من الطعام... ولكنها لم تعد حتى الآن... أرخى الليل سدوله وتسلل بعتمته إلى الغرفة الموحشة ليزيدها وحشة على وحشتها، فيجعل الرعب ينطق من بين جدرانها... ويمارس وحشيته على هذه النفس البريئة الضعيفة...

طال غياب الأم... ولم يعد يسمع سوى صوت المتفجرات وعبارات القناصة النارية، ومن ثمّ صوت صرخات عويل تعلن الموت والدمار... أغمض الصغير عينيه المرهقين فرأى صورة وجه أبيه... فقبل عام تقريبًا خطفوا والده... وظلت الأسرة لا تعرف عنه شيئًا... إلى أن عاد منذ شهرين مبتور الساقين مشوه الأطراف... عاد بقايا إنسان لا ذنب له في هذا المصير سوى أن من خطفوه وأرادوا أن يُنسوه لبنان، ويفصلوه عن جذوره، لكنه رفض فدفع عمره ثمنًا لوطنيته... لقد مات بعد عودته شهيدًا...

فوق صدر الجدة وبين نحيب الأم... وذعر هذا الطفل الخائف من هذا الزائر الغريب الذي يدعى الموت، لكنه بعد ذلك: ومنذ وفاة والده اعتاد هذا الضيف... فقد توفيت جدته قهرًا وحزنًا... وأيقن صغيرنا أن الموت رحمة، وأن الحياة لعنة في هذه الأجواء.

فتح الطفل عينيه - الجوع يقضم أمعاءه- الخوف ينهش أعصابه... وانتصف الليل ولم تعد أمه... الليلة... القصف أشد من أي ليلة سابقة... صاح الطفل مذعورًا إثر دوي هائل:

«أمي عودي... الخوف يشلّني... والجوع يعتصرني يا أمي... إني أرى شبح الموت يقف أمامي ماردًا يرعبني، فتعالي أغيثيني بحنانك وضميني إلى صدرك. دفء أمومتك يمتص من قلبي الذعر والرهبة من هذا الضيف المخيف»!

ومن خلال دموعه فجأة... وقعت عيناه على «برطمان مربى» فخفق قلبه وزحف ببطء... مد يده داخل «البرطمان» وأخرج أصابعه وقد غطتها المربى فلعقها بسرعة... لكن لا... لن يأكل المربى... لأنها لن تسد جوعه فبحث بعينيه عن كسرة من الخبز ليصنع منها «عروسًا» للمربى... وأخيرًا وبعد أن عجز أن يجد

كسرة من الخبز... رأى ورقة صحيفة ملقاة على الأرض... فامتدت يده النحيلة نحوها... وبلا تردد فرد الورقة وغاصت يده في «البرطمان» ومن ثم مسح المربى فوق الورقة ولفها على شكل أسطواني مثلما كانت تفعل أمه تمامًا... وبهدوء بدأ يقضم الورق مع المربى... شعر بأنه يأكل عروس خبز تنوري ساخن، كان يأكله بشهية وسعادة، وبالرغم من أن القصف قد اشتد أضعافًا، إلا أن خوفه زال عنه تمامًا!

شعر بأبيه وأمه وجدته، جميعهم حوله... أمه تضمه إلى صدرها... وأبوه يحيطه بذراعيه القويتين... أما جدته فقد كانت تراقبهم بابتسامتها الملائكية التي لم تفارق قط وجهها؟!

وبعد لحظات دوّى انفجار هائل حوّل كل شيء إلى أنقاض، أنقاض دفنت تحتها جثة طفل لم يبق منها شيء ظاهر سوى يد هزيلة صغيرة تقبض بقوة على «عروس ورق المربى»!

- «العروس» تعني الشطيرة باللهجة اللبنانية العامية...

مسك الختام

■ «ألا فتشوا عن السلام في قلوبكم... أما في غير القلب فعبثًا تفتشون».

«ميخائيل نعيمة»

زنزانة من ذهب

■ وتتصدع الأماني في الحياة، وتذبل الطموحات في الدروب، وتصدأ جنازير طواحين الأمل في العيون.

الأمس مثل اليوم، واليوم مثل الغد لا جديد ولا قديم... ما مضى لا يؤسف عليه، وحال اليوم أقسى من أي وقت كان، وما هو قادم لا رجاء منه ولا مني فيه... يمر الوقت متحجر الحركة، فارغ المعنى، يغلفه الضجر والملل والزهد، الوقت يتمطى، يتثاءب، يركل بأقدامه وحوافره صدرها الموجوع من هم وحزن السنين.

يمر الوقت ثقيلًا بطيئًا، لا هو يقتلها ولا هي تقتله... وتضيع الخطوات، تتبعثر، وتتبخر من ذهنها الحكمة، فلا تفرق ما بين العدل والظلم، الحق والباطل، الخير والشر، فحينما تشد حبال الظلم أوتادها حول أعاقنا يخنقنا اليأس والقنوط... فالظلم الجبار

القهار هو نظارة اليأس السوداء التي تحيل حياتنا إلى ظلام دامس...

سنوات طويلة مضت معه وهي كدمية يحركها، هو بخيوط من حرير، ففي هذا القصر كل شيء من حرير، هذا القصر عبارة عن شرنقة من حرير... تلتف جدرانه حول جسدها، تطبق على ضلوعها تضغط على أنفاسها... لكن ممنوع الشكوى، ممنوع الاعتراض لأن الجدار من حرير! مهزلة... الجدار جدار حتى لو كان من حرير!

سنوات طويلة وهي في هذا المنفى... كقطعة ثمينة نادرة أُحضرت من غياهب كنوز العجائب النادرة الحسن والجمال، لتُحفظ هنا مع باقي القطع النادرة الثمينة، إلا أنها مميزة لأنها تتنفس وتتحرك فهي مخلوق حي، هذا ما تدركه هي، أما هو فللأسف لا يدرك هذا الواقع، لأنه لا يفرق بين معاملته لها ومعاملته لباقي قطعه الثمينة، جميع ممتلكاته حينما يريد أن يتأملها ينفض عنها الغبار، وتحمل له على وسادة من حرير لينظر إليها، ثم

تعاد إلى مكانها، هي أيضًا ينفض عنها الغبار وتوضع له فوق سرير من حرير ثم تعاد إلى عزلتها.

هذا القصر هو «باستيل» لأحلامها لطموحاتها لعواطفها لكيانها. منذ أن حُملت وأُحضرت إلى هنا... وهي محنطة... سكناتها تصرفاتها أنفاسها كلها محسوبة عليها... الكاميرات تحاصرها، العيون تراقبها... أخبارها كلها ترده رغم أن ليس لها أخبار، أما أخباره هو، وما أكثرها من أخبار، لا تدري عنها شيئًا... هي تراه حينما يشاء فارسًا متوجًا بكل غروره ونزواته ومغامراته... رغباته أوامر... لا اعتراض ولا رفض... مرة واحدة قالت له:

- الحياة هنا محالة... خذني معك في حلك وترحالك... أنا هنا أحيا في زنزانة... هذا القصر زنزانة...

قهقه ساخرًا منها:

- لا بأس، ربما هذا القصر زنزانة... ولكنه زنزانة من ذهب، كل شيء هنا من حرير... لأنه قصر أو كما سميته «زنزانة» ولكن من ذهب!...

أجابته بذهول من جبروته:

- ذهب أو ألماس أو نحاس... الزنزانة زنزانة... كل المعادن والأحجار الثمينة تتساوى حينما تشكل لنا حدودًا وقيودًا وأصفادًا تكبّلنا تُعيقنا...

الحياة انتظار لكل جديد، هي حرية فكر، وانطلاق طموحات، وتطلعات مستقبلية... نحن بشر لا دُمَى وتحف تحفظ للزينة... كوخ من قش نحقق فيه أحلامًا أفضل من زنزانة من ذهب تُغتَصب فيها أحلامنا أفضل من زنزانة من ذهب تُغتَصب فيها أحلامنا وتعقر فيها أمانينا...

أنا هنا دمية، تحفة ليس إلا... ترى هل أمّنت عليّ كباقي ممتلكاتك الثمينة ضد السرقة... ضد الكسر... ضد العطب والخلل والفناء؟!

نظر إليها هازئًا:

- اطمئني كل شيء مؤمن عليه... كل ممتلكاتي مدفوع التأمين عليها في شركة التأمين وأنت أيضًا مدفوع التأمين عليك في حساب أبيك...

قهقه وتركها مع واقعها... إذن هي سلعة... سلعة بيعت له وثمنها مدفوع نقدًا وعدًّا... ومنذ ذلك اليوم عرفت حدود أمانيها لقد سلبت حقوق إنسانيتها، أصبحت كالفريسة التي وقعت في فخ وهي تظن أن لها في هذا الفخ رزقًا وحياة، فإذا هي تقع في مقبرتها وتمضي حياتها في هذا الفخ أو في هذه المقبرة وهي ما زالت على قيد الحياة...

هذا هو الرق الأبيض... الذي ما زال قائمًا إلى يومنا هذا...

هذا هو بيع وشراء لأعمار بعض النساء لأنه لا يوجد قانون يحمي اغتصاب الأعمار... فشرائق الحرير وزنزانات الذهب لا تهاجم ولا تقتحم ولا ينقذ الساكن فيها... وفكره وكيانه يهان ويحجر ويغتصب...

الهُروب في درب الأعمار

■ ودارت الدعوة «لشرشوحة بارتي» أو «حفلة المبهدلة» فكرة غريبة أليس كذلك! خاصة في عالم النساء... وفي طبقة من المجتمع شغلها الشاغل الترتيب والبروتوكول والأناقة والمظاهر البرّاقة... دعوة صريحة صارمة تفرض على كل مدعوة الحضور بملابس غاية في قلة الترتيب والبهدلة مع تقمص دور «الشرشوحة».

بدأ توافد المدعوات... جميعهن لبَّين الدعوة بحماس منقطع النظير... كل واحدة كانت قمة في الشرشحة والبهدلة حتى إن العين تحتار تتوج مَن منهن ملكة فوق عرش «الشرشحة»... لذا حينما عجزت لجنة التحكيم... تم اختيار الفائزة بالقرعة... أي بالحظ وليس بالجدارة.

جميع المدعوات كن أمهات وبعضهن جدات... لكن لا يهم، الأعمار نحسبها بالإحساس وليس بالسنوات...

المهم أن الجميع يعشن ساعات معدودات لا تعوض من المرح والمزاح والتهريج... ساعات سرقتها كل واحدة منهن من عمر الزمن لتعيشها على مزاجها وسذاجتها...

في تلك الأمسية تفجرت مواهب تمثيل وإبداع لا تعقل... كل واحدة من المدعوات ألقت خلفها المسؤوليات والالتزامات، نسيت مركزها الاجتماعي وقيوده... تزينت أو بالأحرى «تشوهت» بما خطر على بالها... وخرجت من بيتها أمام زوجها وأبنائها والمستخدمين... وهي على الصورة «الكاريكاتورية» التي اختارتها لذاتها، قمة في الشرشحة – على غير المعتاد– جميع العيون حولها كانت شاخصة متعجبة من هذه المفاجأة... لكن جميعهم استقبلوا الفكرة والمشهد بالضحك والتهريج.

ها هي ربة المنزل وسيدته الوقور الصارمة... تخترق كل الطقوس التي طوقت بها نفسها منذ سنين... منذ أصبحت زوجة ومن ثم أمًّا... فجأة في تلك الليلة تعود إلى الوراء إلى أيام المراهقة...

والصبا... وطيش الشباب – ها هي كل واحدة تتنكر بالزي الذي يروق لها... هي على موعد مع الضحك والتهريج مع صديقاتها... ولم لا؟ كل واحدة منهن أجهدتها المسؤولية وأرهقتها أعباء الحياة... إن هذه الدعوة هي هروب وفرار مما يفرضه عليهن المجتمع من رسميات وقيود ومجاملات وقواعد وأصول وطقوس... التزامات جميعنا مللناها... مللناها... هذه الدعوة هي: «هروب من درب الأعمار» هروب مؤقت لساعات معدودات... وغيبوبة مؤقتة عن المسؤوليات... هي ذكرى حلوة نختزنها في رصيد الذكريات الجميلة... التي نعيش عليها في كبرنا حين تعف النفس وتهدأ عن السعي وراء أشياء كثيرة...

وبالمناسبة، التعفف والهدوء اللذان يصيباننا في كبرنا ليسا هداية وصلاحًا كما يدّعي البعض؛ بل هما عجز وهرم نخضع لهما شئنا أم أبينا... فنقبع في وحدتنا في هذه الإجازة الإجبارية من أعمارنا، نجتر الذكريات لأننا لا نملك شيئًا سواها.

والعقلاء في أيام شبابهم وطاقاتهم هم من يجعلون أوقاتهم تمضي حلوة جميلة سعيدة، لتكون أطباقًا لذيذة شهية في وجبات

الذكريات لا تعافها النفس وتهابها... ويّ... عسى يظن البعض فيّ الظنون... ويعتقدون أني أدعو المرأة في مقالي هذا إلى الشرشحة والبهدلة واللهو... معاذ الله... إني أدعو للبساطة والمرح البريء...

إنه «الهروب من درب الأعمار» ولو لحين... لأن شحنة من المرح تطيل الأعمار وتجدد الخلايا في الروح... إن الدعوات التي نسمع عنها بين الحين والآخر: «جلابية بارتي» «جينز بارتي» ما هي إلا محاولة للرجوع للبساطة والمرح طبعًا «شرشوحة بارتي» هي صرخة تدعو إلى أقصى نقيض مضاد للأناقة والشياكة والبذخ... هي كصفعة توقظنا من المبالغة علّنا نعود إلى المعقول...

بعض النساء - وللأسف- يبالغن إلى حد اللا معقول في ملابسهن وحليهن... حتى إننا حينما نرى الواحدة منهن نشعر وكأنها بعد أن ارتدت هذه الملابس والحلي... نقعت نفسها في «محلول النشا» فراحت تمشي في خيلاء وتكبّر «كالطاووس» قدماها فوق الأرض وأنفها في السماء... و«يا أرض اخسفي من عليك» كأن عمودها الفقري تصلب فعجزت عن تحريك رقبتها

ذات اليمين وذات الشمال... أصبحت كالخشبة «حاجة عجبة»... يا ساتر.

إني أدعو لهجرة بيوت الأزياء والعودة إلى «أكواخ الأزياء» فالأناقة ذوق وفن ولا دخل للبذخ والإسراف فيها... المرء منا جوهر ومعدن... وليس قشورًا برّاقة تغلّفنا... إذا ما هبت هبة ريح عليها بعثرتها... فعرّتنا وفضحت حقيقتنا... ليس مهمًّا أن تكون ملابسنا من بيوت الأزياء... وصدورنا مزينة باللؤلؤ والذهب والألماس...

ليس مهمًّا أن تكون مجوهراتنا «أصلي» أو «فالصو»... المهم أن يكون داخلنا معدنًا أصليًّا... المهم أن نكون نحن أصلي... أن لا نكون «فالصو».

مسك الختام

■ بعدك... يعجز هذا القلم الذي كتب معاجم في الحب أن يكتب كلمة واحدة في... الحب...

وكالة أنباء القيل والقال المتجوّلة

■ هي لا مباحث ولا مخابرات، لكن كل أخبار الخلق عندها يا حضرات... تتقصى وتبحث عن الأخبار وتبثها عبر أحدث جهاز إرسال... جهاز إرسال سرعته في نقل أخبار القيل والقال أسرع من سرعة الضوء والصوت، يا سادة يا كرام!

الأخت لها أذنان كالرادار تنقل الأخبار مباشرة على الهواء صوتًا وصورة... تنقلها عبر عينيها اللتين ما هما إلا شاشة تلفاز ولسان ما هو إلا مذياع!

السّتّ دائمًا في حالة استنفار لاستقبال الأخبار أولًا بأول...

فما يدور في أيّ بيت من بيوت الخلق تعرفه بقدرة قادر وتبثه فورًا من خلال جهاز إرسالها الذي هو عمدة أجهزة الإرسال المتخصصة في بث أخبار القيل والقال... وقد تسألونني لم هي

العمدة في هذا المجال... أجيبكم: لأن الست يا سادة يا أفاضل يا كرام لا تعمل فقط على الموجة الطويلة والقصيرة فحسب... بل تعمل أيضًا على الموجة العريضة والرفيعة... العمودية والأفقية... القطبية والاستوائية... طاقتها يا قوة الله من بيت إلى بيت تستقبل أخبارًا... وتبث أخبارًا... مستحيل أن تفتر كأنها معبأة «بزمبرك» تعمل على أي قناة... وعلى جميع أنواع السيستم... بال... سيكام... إن... أي... سي... تي - إلخ... وعلى 110 فولت أو 220 فولت حسب رغبتك... طاقة عجيبة «فول أوتوماتيك»!

الأخبار تصلك منها طازجة... وكلمة حق في صالحها يجب أن أذكرها، فهي صاحبة مبدأ ومثل في مهنتها... شعارها «أحكيلك وأحكي عليك» فلا أحد يجب أن يغضب عندما يسمع أخباره هو أيضًا تتداول بين الآخرين...

أما أسلوب تقصّيها للأخبار فهو كالتالي: الأخبار إن لم تصلها منك خلال زياراتها التتبعية لمنزلك بدعوة... وغالبًا من غير دعوة... فهي تنتظر إلى أن يطب زوجك في يدها في بقالة أو مكان عام فتحاصره بألف سؤال وسؤال، فإن كان قد ألهمك الله

وحذرت زوجك منها فلن يقع في هذا المطب، ولن يجاوبها لا بباطل ولا بحق!

الست لا تيأس أبدًا... ستلجأ إلى أطفالك... فإذا أنت عوّدتهم أن نقل الأخبار عادة سيئة، فستفشل وكالة أنباء القيل والقال... لكن ستسعى إلى أحد الشغالين أو الشغالات وملاطفتهم لمعرفة أي خبر عنك مهما كان، حتى لو اضطرت أن تبقششه... وقد يرفض هذا الأسلوب الرخيص... وهنا يجن جنونها ولا يظل أمامها سوى أن تتنكر وتجلس أمام بيتك تراقبك وتحاول أن تسمع الأخبار حتى، لو من وراء الأسوار.

قارئي: لن أطيل عليك... فأنا أشعر مثلك بحالة من الضيق والغثيان من هذه الشخصية العجيبة... وأعجب من قول «من راقب الناس مات همًّا».

عجيب... عجبي كيف لم تمت هذه المرأة حتى الآن؟!

مسك الختام

■ ويضيق صدري... ويتوقف استيعابي لجميع الأخبار... إلا أخبارك أنت!

ويحك اللَّيلة ليلتي

الليلة ليلة سعادتي وفرحتي... ليلة عرس ابنتي...

هذه الليلة لي ولابنتي... كيف تجرؤ أن تعكر صفو فرحتي وتهزمني في أعظم لحظات عمري وسعادتي؟

كيف تزيدني قهرًا على قهري؟ كيف تطعن مشاعري وتشنق فرحة أمومتي؟ كل هذا متى؟ في ليلة فرحتي بابنتي... في ليلة عرس ابنتي؟

أما يكفيك ما فعلتَ بي... أما يكفيك أجمل أيام عمري سلبتها... ثم رميتني...

بعد أكثر من عشرين عامًا من العشرة والإخلاص والتفاني... بماذا كافأتني... بامرأة أخرى احتلت منزلي... وسلبت من قلبك عزي ومكانتي؟

أواه... أبهذه المرأة كافأتني... أهذه هي مكافأة نهاية الخدمة...؟

سحقًا لشر مكافأة لأفضل خدمة.

كل ما فعلت بي ما هزّني قطّ، ما أفقدني شيئًا من كبريائي وعزتي...

بقيت أنا كما أنا... شامخة... صامدة... في عيون أبنائي... في عيون من حولي...

وكما طويتني صفحة من أيامك كذلك أنا مزقتك كتابًا من عمري...

كما بعثرتني ومسحتني ذكرى من خاطرك... تقيأتك وجعًا وندماً وصديدًا من فكري... وتابعت مسيرتي فمثلي لا يعرف التوقف.

يظل المرء العملاق خليطًا متوازيًا من الحب والكبرياء... إلى أن يُظلم ويغدر... وتظهر له الحقائق... فتدميه... ثم توقظه...

حينئذٍ يدفن الحب ويواريه في الثرى... ويظل الكبرياء... يظل الكبرياء...

لكن الليلة... لا...

تمهل... فالليلة عرس ابنتي... كل هؤلاء المدعوات هن أهلي... هن صديقاتي... جميعهن أتين تلبية لدعوتي... يشاركنني فرحتي...

الليلة أعترض وأرفض أن تشوّه لي ذكرى ليلة عرس ابنتي! أخبرني... من سمح لك أن تدعو زوجتك لعرس ابنتي؟

الليلة... من بين ليالي العمر كله – أنت ملزم أن تراعي مشاعري ومشاعر ابنتي...

بحق تلك العشرة الطيبة التي أنكرتَها، وأبناء بيننا نسيتهم وأهملتهم كما نسيتني وأهملتني.

الليلة – فقط– تذكَّر مخافة الله في التعامل بيننا... يكفيك أنك نسيتها... حينما جردتني في ظلام الليل من كل شيء... ومن بيتي أخرجتني...

ها هي زوجتك واقفة بجانب العروس... تتمايل... تتدلل تتباهى بفوزها بك... بخطفها إياك... ومن ثم بذراعك تمسكك...

تهمس لك... تبارك لك... فوق خدّيك تقبلك...

كأن العروس ابنتها... وليست ابنتي...

كأن الفرحة فرحتها وليست فرحتي...

كأنها حينما امتلكتك امتلكت كل ما يخصك... وهكذا بقوتها عليك وبضعفك أمامها... من كل حق لي فيك جردتني.

ويلي... أعلم أن وجهي شاحب شحوب الموت...

أنفاسي تلهث لُهاث الاحتضار...

صعب عليّ أن أتمالك نفسي في هذه اللحظات...

أن أسمع عن قهري شيئًا... وأن أراه أمام عيوني شيئًا آخر...

حول هذه الطاولات... وبين هذه المقاعد رحت أحوم... أحوم... أدور... كشاة ذُبحت بسكين صدئة... قطعت أوردتها لكن لم يجهز عليها...

آه أداري وجعي... أين؟ لا أدري...

آه... أفجّر سخطي... أين؟ لا أدري.

كل الطاولات في عيوني جحور.

جحور ليتني أختفي في جحر من هذه الجحور...

وأنت... وهي... تقفان أمامي... جوارح تغرسان في جيفة مشاعري مخالبكما كمخالب الصقور.

وآه... ألف... ألف آه...

ابنتي حبيبتي... تبحث عني بعينيها المحمرتين وجعًا... مشاعر المرأة كما اشتعلت في نفسي... استطعت أن أقرأها أنينًا وألمًا في مقلتيها...

هي أيضًا – مثلي– الليلة لا تريد أن تعكّر صفو فرحتها وتذكر واقع حرمانها منك...

لا تريد أن ترى زوجتك تهيمن على كل شيء... تلغي كل من حولك، حتى أنت تلغيك وتصبح الناطق الرسمي لك وعنك...

وفي زفّتها... في طلّتها... في «كوشتها»... ابنتي تريدني أن أكون بجانبها لأشاركها فرحتها... كما أحطتها هي وإخوتها دائمًا بحبي ولم أشعرهم قطّ بفجيعتي فيك ووجعي منك...

هي الليلة تريد أن تعوّضني... تريد بحبها أن تساندني... لكنك كما شوهت جميع ليالي عمري... شوهت فرحتي في ليلة عرس ابنتي...

جعلتني أختفي ريثما دورك ودور زوجتك ينتهي...

بجبروتك أبيت أن تحترم مشاعري وتعدل - الليلة فقط- في معاملتي...

فرضت وجود زوجتك وشطبت وجودي... فأبكيت ابنتي في ليلة عرسها قهرًا على... فأبكيتني...

مسك الختام

- ليست الكارثة في عدد الزوجات... فهذا شرع الله «المشروط بالعدل».
- الخطأ ليس في المبدأ... إنما في البشر الذين طبقوه على غير هدى...
- الكارثة في قلة مخافة الله في التعامل بين البشر...

حديث الوسَادة

■ ألقت بجسدها المرهق في فراشها، ومالت برأسها فوق وسادتها باتجاه زوجها الذي نظر إليها نظرة مليئة بالحنان والحب وهو يمسح بأصابعه دمعة صامتة انسابت فوق وجنتيها ثم أمسك بيدها ولثمها قائلًا:

- هل هذا وقت للدموع؟ ستشهد عليك الليلة وسادتنا أنك بكيت في ليلة عرس ابنتنا الصغرى، هذه الدموع لا عذر لها، لقد كان الحفل رائعًا، والعروس وعريسها كانا في منتهى السعادة والهناء، أما أم العروس فقد كانت أجمل الحاضرات وأكثرهن تألقًا وإشراقًا.

ابتسمت في دلال أنثوي وقاطعته:

- طبعًا في عينيك أنت فقط.

- بل يا سيدتي في عيون كل من رأوها وبشهادة كل الحضور، على كلٍّ أنا صاحب الشأن ورأيي أنا هو الأهم – الليلة أشعر أنا أيضًا أني عريس، ها نحن بعد سبعة وعشرين عامًا نعود كما بدأنا معًا وحيدين، كأننا في أول ليلة معًا تحت سقف واحد.

تنهدت وأغمضت عينيها وقالت وهي سارحة:

- الله... عمر، سبعة وعشرون عامًا، بكل ما تحمل من تجارب، فرح وترح، هدوء وصخب، رخاء وشدة، سبعة وعشرون عامًا بكل ما تحمل من متناقضات مشيناها معًا خطوة خطوة كزوجين، كحبيبين، كصديقين، الآن تزوج أبناؤنا الثلاثة، كل واحد منهم يعيش حياته الخاصة مع رفيق عمره، لقد انتهى دوري ودورك معهم، ولم يبق لدينا سوى أن ندعو لهم بالتوفيق ونراقب ثمرة جهدنا وتفاهمنا في تربيتهم ورعايتهم طوال الأعوام الماضية – آه ما أطولها من رحلة...

تنهدت تنهيدة طويلة وصمتت، فأكمل حديثها قائلًا:

- ما أطولها من رحلة وما أسعدها من رحلة، وهذا هو المهم يا حبيبتي، البشر جميعهم يتزوجون وينجبون، لكن فئة قليلة تعرف معنى السعادة في حياتها والسبيل لها، الحياة الزوجية هي ارتباط بين رجل وامرأة، كل واحد منهم له عقليته الخاصة به وشخصيته وكيانه، وإدراك هذا الواقع هو من أهم الأسس لبناء حياة زوجية سعيدة، بعد هذا على الزوجين أن يسعيا مع مرور الأيام أن يندمجا وينصقلا ليصبحا شخصًا واحدًا بفكر واحد وهدف واحد.

أنا وأنت يا حبيبتي والحمد لله استطعنا أن نصبح روحًا وفكرًا واحدًا في جسدين.

- صدقت، هذه الحقيقة لا نشعر بها أنا وأنت فقط بل يشعر بها كل من يحتك بنا، ولقد انعكس تفاهمنا وسعادتنا على حياة أبنائنا، طوال السبعة والعشرين عامًا تشهد علينا وسادتنا هذه أننا لم تغمض لنا قط عين ولم تستسلم رؤوسنا للنوم فوقها، قبل أن نراجع خطوات أمسنا ويومنا وغدنا.

مد يده ووضعها فوق كتفيها وقال:

- نعم وسادتنا هذه تشهد لنا على عمق تفكيرنا وقوة ارتباطنا معًا، سر نجاحنا هو التفاهم في الوقت المناسب وفي المكان المناسب، في غرفتنا هذه وفوق وسادتنا كم نقاش دار بيننا، وكم مشكلة طرحناها خلال السبعة والعشرين عامًا كم من أفراح وأحزان، بشائر وهموم، آمال وآلام، جميع هذه المتناقضات تطاحنت هنا بيننا، لكن لم تغمض لنا عين قبل أن نتفق ونتفاهم على كل خطوة.

ابتسمت في ارتياح وقالت في شبه مناجاة:

- حقًّا حديث الوسادة أجمل حديث بين الزوجين، خاصة في سكون الليل، والحب والعشرة الطويلة يرفرفان بأجنحتهما على مجلسهما.

قال هامسًا:

- في سكون الليل وبعد يوم حافل بالحركة حينما يلجأ المرء إلى فراشه ويضع رأسه فوق وسادته، يكون الإنسان أكثر استعدادًا لتقبل النقاش المنطقي، ويكون تفكيره إيجابيًّا في إيجاد الحلول لكل مشكلاته.

ضحكت بخبث:

- ويكون في عالم برزخي، كمن خُدّر، غير قادر على الكذب والمراوغة فعقله الباطن هو الذي يتحدث.

قهقه ضاحكًا وقال:

- أشهد أن لك أسلوب المحققين، لقد سخرت هذه الأحاديث دائمًا لصالحك فقد كانت تأتيك اعترافاتي بكل سهولة بدون أي جهد منك، فأنت أذكى من يعرف اختيار الوقت المناسب للحصول على أي جواب لأي سؤال.

قالت بثقة:

- على كلٍّ كان الهدف أن أعرف ما يدور في أعماقك، فأنت تحتك بالكثيرين ومعرفتي بتجاربك تساعدني أن أعرف ما تحب وما لا تحب، سعادتنا كانت هدفي، لم أحاول قط أن أجعل من اعترافاتك ممسكًا عليك.
- يا عيوني لم أندم أبدًا على أي اعتراف أو سرّ بحت به لك، كنت دائمًا عملاقًا في حبك وتفهمك وحنانك.

- وأنت كنت تستحق كل هذا وأكثر، فإيجابيتك في النقاش وفي حل المشاكل وأخذ رأيي بعين الاعتبار والأهمية لم يجعلني أشعر أنني أحيا حياة مكبلة مشلولة، لم يكن قط حديث الليل يمحوه النهار كما هو معتاد بين الكثيرين، احترامك لقراراتنا المشتركة جعل حياتنا تتخذ طابع الثقة والأمان والعطاء من أفضل إلى أفضل...

قال بحنان وجدية:

- أنت امرأة عظيمة متجددة في كل شيء، في تفكيرك في مظهرك، العالم الخارجي بكل إغراءاته لم يستطع أن يأخذني قط بعيدًا عنك.

أجابته بعتاب يميل للغضب المدلل:

- حدث بعض الأحيان أن أغراك، أتذكر؟

فقاطعها ليعيد الحديث لرومانسيته:

- لكن دفئك وحكمتك وحبك أعادوني لصوابي، لجنتي...

ثم همس لها بحنان:

- من معه القمر لا ينظر إلى النجوم...

تنهدت في ارتياح وقالت:

- بكلماتك المعسولة هذه تعيد لي حيويتي وأنوثتي وشبابي رغم أن أيام العمر تجري بي...

وضع أصبعه على فمها وقال:

- ستظلين في عيوني يا عيوني أحلى الحلوات وأجمل الجميلات.

فقالت بصوت منخفض جدًّا لا يكاد يسمع:

- عيون الرجل مرآة المرأة، وغبي الرجل الذي يغمض عيونه عن امرأته، إذ لا بد للمرأة أن تبحث لها عن مرآة أخرى لترى ذاتها، نظر إليها بعمق وقال:
- إني أجد فيك يومًا الزوجة ويومًا الأم ويومًا الصديقة ويومًا الحبيبة ويومًا الابنة، صلتي بك حسب احتياجي لك، أنت لست امرأة واحدة؛ بل أنت ألف امرأة في امرأة واحدة...

وضعت رأسها فوق صدره وقالت:

- وأنا أيضًا طوال رحلتي معك، في كل يوم كنت ألجأ إليك، يومًا كزوج ويومًا كأب ويومًا كصديق ويومًا كحبيب، أنت كل الرجال في رجل واحد.

أطربه جوابها فضمها إلى صدره بشدة وقال:

- إذن اتفقنا، سر نجاحنا هو تجددنا من خلال عظمة الحب المشيدة حياتنا فوق أعمدته.

فقاطعته بدلال وحب:

- بل السر الأعظم هو حديث الوسادة الذي ما انتهى قط بيننا إلا ونحن نحلق معًا في سماء الرضا والحب والهناء.

أحاطها بذراعيه القويتين ليكملا معًا مشوار سعادة مؤبدة في حياة زوجية هي حلم من الأحلام فوق سحاب الخيال.

مسك الختام

■ تعال نبني معًا بيتًا أساسه من الحب،
أسقفه من التفاهم، جدرانه من الثقة،
تعال نبني عشًّا نوزع في أركانه ألحانًا
من السكينة والرحمة والمودة والهناء.

ولك كل الرضى حتى ترضى

■ وحالهما غير حال كل المتزوجين... كانا حبيبين... امرأة ورجل... تبادلا القلوب فسرى قلبه في جسدها، وسرى قلبها في جسده، فانكبّ كل واحد منهما على رفيقه يحمل همومه، يحمل أفراحه وأحزانه، يحمل آماله – أصبح كل منهما يدري عن حال نفسه من خلال الآخر.

وفي إحدى الليالي، طحن المرض جسدها الرقيق فأضناها، وهدَّ الغثيان عافيتها فأرهقها، وأذبل الوجع البسمة فوق شفتيها فأبكاها... وفي وجعها وهذيانها كان هو الأم الحنون يحوم حولها يداويها، وبين حين وآخر يضمها إلى صدره ويهمس في أذنيها: «سلامتك... سلامتك». ثم يعود ويضمها إلى صدره فقد كان واثقًا أنها في دفء حنان صدره ستشفى، فهي الحبيبة التي تستنشق أوكسجين الحياة من خلال حنانه عليها وحبه لها...

كان جسدها المتكبكب المتهالك فوق سريرها يرتجف سعادة بمرضه وينتشي بضعفه... فبين يدي الحبيب يخف ثقل أوجاع الدنيا على القلب المحب وتتلاشى حتى سكرات الموت في سكرات الحب.

كنوز الدنيا بأسرها لا قيمة لها أمام هذه اللحظات الهنيئة، وهي تتمتع به يرعاها، يدللها، يحنو عليها يشفق على ضعفها. هذه المرة الأولى في رحلتهما معًا يراها في حالة مرض ووهن وإعياء، إن هذه المرأة التي طالما سهرت على راحته وخدمته وهي تضج بالحيوية والعافية والمرح، فتشعره أنها امرأة فولاذية صلبة لا تتعب ولا تكل من حبه كأنها حولت قلبها إلى سنام يغذيها الحب من خلاله طاقة عجيبة لا تقهر ولا تمل. الآن تأكد له أنها امرأة وبكل ما تحمل من مميزات نادرة، إلا أنها كباقي النساء إذا مرضن أو مسَّهن وجع تحولن إلى حالة ضعف تجعلهن أصغر من أصغر الأطفال.

ها هو يراها بعينيه كفرخ من فراخ الطيور الذي هشم لتوه بمنقاره قشرة البيضة التي تحيط به، وحينما خرج إلى النور فزع من العالم،

فجمع جسده الغض الضعيف وهرول فزعًا يلجأ لجناح أمه يحتمي تحت ريشها لينعم بالدفء والرعاية والحماية والحنان.

زاده هذا الشعور عطفًا عليها، وحبًّا لها واهتمامًا بها، فزادت هي احتياجًا وتقديرًا وإعزازًا له، فأغمضت جفونها وسبحت في خيالها اللا واعي في عالم هادئ يتمثل في استراحة هانئة مطمئنة بين ذراعيه.

وبين غيبوبتها وصحوتها، وبين وعيها وهذيانها تذكرت أنه في الليلة السابقة كان غاضبًا وكانت هي من أغضبته، كان مستاء وكانت هي من أساءت له، وأدركت خطأها غير المقصود، لكن بعد أن فقدت السيطرة على الموقف، فخافت منه، وهي التي لم تعرف قط الخوف، خافت أن لا يفهمها، ويبطش بها ويقسو عليها فيحطم كل ما بينهما فشعرت كأنها أزهقت روحها بقبضتها...

في ذلك المساء جلست تسترضيه لكن لأول مرة تسترضيه، من نقطة ضعف، اعتادت دائمًا أن تسترضيه لكن من نقطة قوة لأنها تكون هي المحقة وهو المخطئ، لكن حبها له كان دائمًا يتجاوز

أخطاءه ويتخطاها، أما الليلة فهي مخطئة بلا خطيئة، والمخطئ منهم مكسور مهما كانت مبرراته وأهدافه ولا يغفر له خطأه إلا قلب محب متفهم معطاء... عاتبها بكلمات قاسية أدمتها وحاسبها حسابًا عسيرًا أوجعها، ثم هدأ وهو يقرأ الألم والعتاب في عينيها، فصمت واعتذر وتصافيا... الله... الله على الصفاء بعد الكدر بين الأحباء يعود فيه الحب كأنه في أول لقاء.

شريعة البشر عجيبة، المرأة دائمًا تغفر وتسامح الرجل على كل هفواته وأخطائه فهذا طبعها وهذا ما قلبها عليه فطر، أما حينما يسامح الرجل ويغفر للمرأة حتى أتفه الأخطاء فهذه معجزة من معجزات القدر.

في منتصف الليل صحت وقد تحسن حالها، فنظرت إليه بوجه مبتسم مشرق بالحب وقالت بهمس ملائكي:

- لك كل الرضا حتى ترضى... ولك كل الحب حتى تسامح وتنسى.

وذهل من هذه النفس المرهفة المحبة الحساسة، فقال بصوته الرجولي العميق:

- ويحك، ما بالك تحاسبين نفسك كل هذا الحساب العسير، أنت تدركين أنه لولا تعكر مزاجي وإرهاقي لما حدث ما حدث... ولما قلت ما قلت، على كلٍّ هذه الغيرة ما هي إلا حطب لتشعل نار الحب بيننا...

فهمها وفهمته ومرت سحابة صيف عابرة في حياتهما... فأغمضت عينيها وهو يطبع قبلًا حانية فوق وجنتيها، امرأة لا قبلها ولا بعدها امرأة، ورجل لا قبله ولا بعده رجل... شخصيات نادرة تسكن في سلسلة خيالي العملاق....

مسك الختام

■ وأرى سعة الدنيا في عيون حبيبي، فأفهم كيف تضيق الدنيا في عيون من لا حبيب لديه...

أبهَا نورة

■ من يدخل «أبها» يدخل إليها كارهًا، ومن يخرج من «أبها» يخرج منها كارهًا، الشطر الأول من هذا القول لم يكن أبدًا ينطبق عليّ وعلى إحساسي حينما دخلت أبها، ملبية دعوة «جمعية أبها النسائية» في موسمها الثقافي في اجتماع الكاتبات والشاعرات والقاصات السعوديات، فلقد ذهبت إلى عروس الجنوب فوق جناح الشوق واللهفة لرؤية معالم تلك المنطقة في وطني الحبيب، تلك المنطقة التي طالما شدني إليها حب الترحال والمعرفة والاستكشاف.

أما الشطر الثاني في هذا القول فإني أعترف أنه انطبق تمامًا على حالي وأنا أحزم حقائب العودة، فحينما خرجت من «أبها» خرجت منها كارهة... نعم خرجت منها كارهة... تمنيت لو طالت إقامتي، فقد قضيت أربعة أيام أضفتها إلى رصيد الذكريات

الحلوة التي تنقش في الذاكرة تحت بند «أيام لا تنسى» وما أقلها من أيام في الحياة.

في مقالي هذا لن أتحدث عن جمال «أبها» وسحر مناخها، ولا عن شاعرية أجوائها، وطبيعتها الخلابة ومناخها الرائع، فقد خاض الكثيرون من قبلي في هذه المواضيع... لذا أنا اليوم سأتحدث عن شيء مختلف تمامًا من الأعماق... سأتحدث عن جواب لسؤال ظل حائرًا في ذهني سؤال يقول: لِمَ نشدّ الرحال إلى مكان ما بالذات؟ ما الشيء الذي يجذبنا نحو مكان دون الآخر؟ هل جمال الطبيعة والمناخ المعتدل ومعالم العمران وتطور الخدمات وسبل الترفيه واللهو... هل هذه العوامل وما يشبهها هي نقط الجذب التي من أجلها نشد الرحال إلى مكان ما؟ محال فهذه عوامل مساعدة وليست السبب الرئيسي، وبعد زيارتي لمنطقة «أبها» أتاني الجواب واضحًا جليًّا، إن ما يجذبنا للترحال إلى أي منطقة هو «الإنسان».

سكّان المنطقة، ناسها هم قوة الجذب الحقيقية... ففي أبها تعرفت على بشر غير بشر هذا الزمان الذين نعرفهم، بشر... هُمْ

خلاصة دماثة الأخلاق وحسن الاستقبال وكرم الضيافة وقمة الرقي للنفس البشرية المتمسكة بأصولها وفطرتها وصدقها... بشر بلا مظاهر كاذبة، وبلا قشور واهية وبلا نفاق موجع مقرف... أول شيء طالعنا ونحن نهبط أرض مطار أبها... هو تلك القلوب الصادقة المهللة بفرحة اللقاء، وتلك الابتسامات المشرقة المرسومة فوق وجوه السيدات الفاضلات اللواتي استقبلننا من عضوات جمعية أبها النسائية الخيرية.

وكانت على رأس المستقبلات لنا الأميرة نورة بنت محمد زوجة الأمير فيصل بن بندر نائب أمير منطقة أبها ورئيسة جمعية أبها النسائية الخيرية.

وهنا يجب أن أقف لأتحدث عن هذه المرأة لأضرب بها مثلًا مشرّفًا كزوجة مسؤول، فقد راقبتها طوال مدة إقامتي، وأكبرت فيها مشاركتها الفعالة مع سيدات المنطقة في كل كبيرة وصغيرة، وقد استطعت أن أقرأ الحب والتقدير مكتوبًا لها في عيون جميع من حولها... وهنا أشير إلى أمر مهم.

«أن المراكز والمناصب لا تعني أن يتمتع أصحابها فقط بمميزاتها ورفاهيتها؛ بل عليهم أيضًا أن يتحملوا أعباء مسؤولية المنصب وهمومه» فالمسؤولية لا تقع على عاتق المسؤول وحده؛ بل أيضًا تقع على عاتق الزوجة... فزوجة المسؤول عليها أن تكون همزة الوصل بين زوجها وبين كل صاحبة حاجة من أهل المنطقة... ونورة بنت محمد هي زوجة المسؤول الجديرة بكل احترام وإجلال، فقد فتحت قلبها وبيتها للجميع... وأسست جمعية أبها النسائية، وسعت جاهدة لاستقطاب جميع القدرات للعمل التطوعي، الجميع تكتلن وتكاتفن لفعل الخير، قتلن «الأنا» وحب الظهور فأصبح العمل حقًّا لفعل الخير وليس للتباهي وكسب المعارف من ذوي الشأن.

جمعية أبها النسائية الخيرية رغم أنها أسست فقط عام 1402هـ إلا أنها حققت الكثير الكثير في مجال الخدمة الاجتماعية، وخير دليل على نجاح جمعية أبها النسائية تقاريرها السنوية التي تشهد بعظمة أهدافها وأعمالها...

وأنا أغادر «أبها» وجدت نفسي أعيد السؤال «لِمَ نشدُّ الرحال إلى مكان ما؟» وأجد الجواب أمام عينيّ إنه الإنسان، أخلاقه... رقيّه الذي يجذب الآخرين إلى أرضه... ووجدتني أردد بيني وبين نفسي:

- يا أهل أبها، سأظل أشد الرحال إلى أرضكم من أجل صفاء ونقاء الأخلاق والمعاملة، ومن أجل قلوب مفعمة بالحب والخير والعطاء.

سأظل أشد الرحال إليكم يا أهل أبها أينما كنتم حتى ولو في غياهب صحاري قاحلة، فغيث أخلاقكم وخصوبة ضيافتكم تحيل اليابس إلى أخضر، تحيل الصحراء إلى جنة.

مسك الختام

■ كتب لي الأخ علي حسن الأسمري في نهاية رسالته التي استلمتها في أبها مرفقة مع دراسة مطولة من عشرين صفحة لكتابي «فيروس الحب» كتب:

«وختامًا أرجو أن تتكرمي مشكورة بقبول باقة من النعنع والقيصوم مضمّخة بنسيم السودة... وملفوفة بغلالة من السحب الأرجوانية فوق تهلل الأشم في عسير واسلمي كشجرة العتم الراسخة في هامة الجبل».

الرجل السَّاقط

■ وكأن الحياة أرادت أن تعطيه كل شيء... لتمنحه إن كان يستحق كل شيء أو لا يستحق أي شيء؟

شاب من أسرة عريقة ميسورة الحال... ذكي... وسيم... محط أنظار جميع من حوله خاصة الفتيات.

أدرك هو هذا الواقع، فامتهن حب الظهور والطيش... وترك العنان لمشاعره تعربد دون أي رادع ديني أو أخلاقي... سخّر مواهبه، ووسامته، وماله، وذكاءه لجذب الفتيات، والحصول على مبتغاه منهن بأي وسيلة... كان يكتشف في كل واحدة منهن مطلبها فيحققه لها... فهذه فتاة عاطفية رومانسية حالمة ما عليه إلا أن يحفظ كتب الهيام والغرام والأحلام ويبثها إياها، إلى أن يصل إلى ما يريد، وهذه تعشق الحياة والمال... فيخطف عقلها ببذخه وإسرافه، إلى أن ينال منها مناه، والأخرى تحلم بالزواج

والاستقرار في عش هادئ... فيعدها أجمل الوعود، فتصدقه وتعطيه ما يشاء، وأما هذه فصاحبة فكر وعلم وثقافة... فيبهرها بذكائه فتظن أنه عالم فذ لوفرة معلوماته، فتقع في فخ فكره، وينجو هو هاربًا بعد أن يحصل على ما خطط له.

نعم... وظّف ذكاءه وماله ووسامته أسوأ توظيف... كان يفتخر ويتباهى أنه «دون جوان» عصره وزمانه... عجبي في هؤلاء الفئة من الرجال! ما هو مفهوم «الدونجوانية» عندهم! ألم يخطر ببالهم أن هذا الكم الهائل من النساء في حياتهم هو تمامًا مثل الكم الهائل من الرجال في حياة امرأة؟ والمرأة التي تنتقل كل يوم من رجل إلى آخر... ماذا تلقَّب؟ ألا تلقَّب بالمرأة «الساقطة»؟ وعليه الرجل الذي ينتقل من امرأة إلى أخرى هو أيضًا «رجل ساقط»؟!

إن الحب الوحيد الصادق في حياتنا لا يعيبنا.. إنما الابتذال لا يجاهر به أحد، إن النساء – حتى بنات الليل– لا يتباهين بالرذيلة... جميع النساء يضعن أمام أسمائهن لقب «ليدي» بمعنى «السيدة»... فما أغبى الرجال الذين يتباهون بالرذيلة ويعلنون بكل فخر «دونجوانيتهم».

ما أحرانا قبل أن نستعمل المصطلحات الأجنبية أن نفهم معانيها...

لنعد لهذا الشاب الذي انهار فجأة مركز أبيه المالي... فقد خسر كل أمواله في البورصة... وهكذا وجد الشاب اللاهي نفسه لا يملك أهم مميزاته «المال» فاحتار في أمره.

وشاءت الصدف – في تلك الفترة– أن يتعرف إلى أرملة ثرية تكبره سنًا... فلم يتردد في التقرب منها... واعتزم أن يتزوجها ويجعل منها موردًا لمصروفاته... رجل له مثل هذه الخبرة لن يعجز عن الوصول إلى ما يصبو إليه... لن يعجز عن الزواج من أرملة وجدت في شبابه تجديدًا لشبابها.

إلا أنه – في نيته– اعتزم أن يطلقها حينما تتحسن أحواله، فمحال أن يربط مستقبله بها، زواج باطل... لكن هذا الرجل لا يعترف بالحق ولا الباطل... إنه يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة!

مرت شهور على هذا الزواج... وشاءت الأقدار أن تحمل المرأة... فجن جنونه... هذا الحمل معناه ارتباطه بهذه المرأة...

أقنعها بالإجهاض.... إلا أن طبيبها رفض هذه الرغبة لخطورة ذلك على حياتها...

في أحد الأيام وقد أصبحت المرأة في شهرها التاسع... حاولت المسكينة أن تلاطفه وتتقرب منه وهي لا تدري ما يكنّه من بغض لها ولطفلها... دفعها بعيدًا عنه فوقعت أرضًا تئن وتتألم.

في المستشفى تمت الولادة... خرج الطبيب من غرفة العمليات ليخبره أن الأم والحمد لله بخير... لكن الطفل مات.

غمرته فرحة غريبة لهذا الخبر... أخيرًا تخلص من ذلك الكابوس وعادت له حريته... وقف أمام القبر ليدفن الطفل... فجأة كشف الكفن وظهر وجه الطفل... نظر إلى ملامح الطفل، علت الدهشة والخوف وجهه... يا الله ما هذا... العينان... الأنف... الفم... حتى هذه الشامة في ذقنه... كل ملامح الطفل قطعةً... قطعة... مطابقة لملامحه... هذا الذي يدفنه هو ابنه... قطعة منه... ابنه مات... وهو تمنى موته... وفرح به!

في تلك اللحظات... في تلك اللحظات فقط... دوت صرخة حادة في أعماقه... صرخة في ضميره زلزلت كيانه، شعر بكل ذنوبه تصرخ به:

قاتل... حقير... مجرم.

جميع الوجوه التي ظلمها وعانت منه... هجمت عليه دفعة واحدة... وجه الطفل البريء قفز إلى بؤبؤ عينيه فالتصق بهما... صاح صيحة مدوّية... وركع خائفًا... خاشعًا، باكيًا... يا ويله... يا ويله... سيظل دائمًا وأبدًا يحيا مع وجه ابنه... وذنوبه... وجحيم عقاب الضمير.

مسك الختام

■ وتظل مخافة الله يوم الحساب والعقاب هي الرادع الوحيد لكبح جماح أهواء البشر.

انتفاضة عقل

■ جالت بنظرها الحائر في أركان المكان تبحث عن شيء ما... الظلام دامس حولها رغم نور الشمس المشع في أرجاء الغرفة.

«الظلام المنبعث من داخلنا كفيل أن يطفئ أي نور مشع حولنا» أمسكت بخصلات شعرها الأسود المتهدلة فوق كتفيها شدّتها بعنف وهي تحبس دموعًا بائسة تسعى كي تهرب من مقلتيها المحتقنتين بغضب ناري... جسدها يرتعش... يتلوى... يتقلص... التصقت بالحائط... خبأت رأسها بين ركبتيها بعد أن كوّرت جسدها ولفت ذراعيها حول عنقها. أخائفة هي؟ ساخطة؟ موجوعة؟ أهي كل هذا؟ أم يا ترى هي ماذا؟ هي... هي كومة حطام لا تفسير لها ولا تعليل ولا تحليل...

فتح الباب... دخل بقامته الضخمة... نظر نحوها... مد يده وأمسكها من كتفيها... انتفضت واقفة مذعورة... نظرت إليه، وما إن اصطدمت نظرتها بوجهه الصلد الصّوّاني الملامح، حتى ابتسمت ابتسامة عابسة مرتعشة، وخرج من أعماقها صوت همهمات تشبه الضحك الممزوج بالنحيب، كأنها حينما رأته اختلطت في عقلها جميع المؤشرات الحسية فما عاد عقلها يستطيع أن يستقبل أو يرسل أية إشارة، خوف أو سكينة... فرح أو حزن... ثورة أو استسلام... كل تصرفاتها اختلطت ببعضها البعض كأن «كابل مولد الكهرباء» المستقبل والمرسل لتيارات الانفعالات، احتكت جميع أسلاكه معًا فاحترقت... مصابيح ضوء الفكر الواعي احترقت فأظلم عقلها... أراد أن يصرخ فيها أن يذيقها من يديه سياط الضرب الذي اعتاد أن يذيقها إياه بسبب، وبدون سبب ولكنها فرت من وجهه.

هو رجل القوة والعنف والظلم، أما هي يا حسرتي عليها... هي امرأة الضعف والهوان والخضوع... منذ أن أخذها من بيت ذويها، منذ ثمانية عشر عامًا وهذا هو أسلوبه معها... رجل جبار...

الصفعة من يده الغليظة كالمصاحفة «كالسلام عليكم» هو لا يتحدث بلسانه بل بيده، «لغة البرابرة... لغة اليد» لعدم التكافؤ فيها، فالمرأة لا تستطيع – لضعف قوتها– أن تحاور الرجل بذات اللغة... خسيس الرجل الذي يتحدث بهذه اللغة... رجل سقطت معاني المعاملة الإنسانية والأخلاق الحميدة من مفاهيمه... لا يوجد في داخله غير الجبروت والسلطة... من حسن الحظ أنها لم تنجب منه سوى وحيدتها «سلوى» التي كانت سلوتها في وحدتها وأملها وعزاءها في أيام عمرها التي كانت تمضي هدرًا مع رجل هو كل الشذوذ الذي يخطر على بال إنسان.

منذ ستة أشهر تزوجت سلوى، زواج ابنتها هو نتيجة لدعائها المستمر لربها، كانت طوال أيامها ولياليها ترفع يديها إلى خالقها تناجيه... تبثه أوجاعها... وتنهي شكواها – بابتهال في أعماقها– أن يعوضها الله عن كل ما رأت من ظلم وعانت من شقاء بزواج ابنتها بشاب صالح لتخرج الابنة إلى عالم لا سيطرة لهذا الأب فيه... زواج ابنتها وسعادتها أمل تمنته وحققه الله لها.

لكن بعد زواج الابنة انهارت المسكينة أصبحت تضحك بلا مناسبة... تتحدث مع نفسها... تقضم أظافرها ثم تبكي... تدور طوال الليل في حجرات المنزل تبحث عن شيء ما... تبحث تحت الأسرّة، في الخزائن، في الأدراج... تفتح صناديق صغيرة أو تنظر في داخل مزهرية للزهور... يراها فيصيح بها: «عمّ تبحثين» ترتبك... تتراجع... تعود ويصيح بها ويهوي بكفه الحديدية فوق وجهها: «تكلمي عمّ تبحثين» تجيب مذعورة: «أبحث... أبحث عن سلوى»!

جنّت المرأة... تشابكت في عقلها أسلاك الموجب والسالب... حرارة الظلم أشعلت حرائق الدمار في تيارات فكرها... فقدت صوابها... ومن منا... من منّا يا بشر لا يفقده الظلم صوابه!

في ذاك اليوم حينما رآها قابعة في ذاك الركن، أمسكها وخرجا معًا... توجه بها إلى بيت والديها... استقبلتها أمها... ضمتها إلى صدرها بعد ثمانية عشر عامًا، ها هي ابنتها تعود إليها وقد فقدت كل شيء... شبابها، آمالها، طموحاتها حتى عقلها فقدته. العقل أهم ممتلكات الإنسان فقدته ابنتها لأنها عاشت بين براثن رجل

طاغية مارس عليها جميع أنواع «الساديّة» رفض أن يطلق سراحها ويأتمر بأمر الله جلّ جلاله «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان».

الآن وبعد أن أصبحت حطامًا ها هو يلفظها... فالظلم في نفسه السادية قد بلغ ذروته، تدرج من حالة سعار إلى حالة إشباع، الآن لم يعد أمامه خطوة أخرى يشبع ظلمه بعد أن أفقدها عقلها سوى أن يعيدها إلى ذويها. توجهت إلى غرفة النوم... بعد ساعة.... ساعة واحدة فقط خرجت وهي بكامل زينتها وكأن هذه الساعة أرجعت الزمن إلى الوراء فعادت صبية مشرقة... الآن استرجعت حريتها وباسترجاع حريتها استرجعت عقلها... استرجعت صوابها... جنونها أرجع لها حريتها، وحريتها أرجعت لها صوابها... «فالحرية والعقل توأمان لا ينفصلان، كما الظلم والجنون توأمان لا ينفصلان».

إن ما حدث لهذه المرأة هو انتفاضة العقل على الظلم حتى ولو من خلال الجنون... إن أعظم أنواع الانتفاضات هي التي تبدأ من ضعف الضعف لتصل بنا إلى منتهى قوة القوة...

مسك الختام

■ دع مشاعري في غفوتها... ودع أحلامي في رقادها... ودع طموحاتي في مهدها... إحياء المشاعر... إيقاظ الأحلام... إثارة الطموحات... تهديد... تهديد مباشر لقوى العقل المكبلة!

نزیف فکر

رحلة في الأعماق

■ عزيزي القارئ...

في مراكب الفكر والتأمل نجلس اليوم معًا ونجدّف بمجاديف الوجع لنرحل في الأعماق، لكن قبل أن نبدأ معًا الترحال والتجوال في ثنايا النفس وقبل فتح مزاليج أبواب الذات والولوج إليها أرجو أن تكون قارئي الكريم ممن يجيدون فن العوم والغوص في الأعماق... وتكون ممن يهوون الاستكشاف، والمعرفة لكل أمر غامض غريب...

فاليوم سأصحبك معي إلى أعماق أعماقي... فالأصداء التي تصيح من الداخل هي دعوة لرحلة في أعماق النفس... ولا أخفيك الحقيقة... أعماقي ما هي إلا صحارى قاحلة... لكن أرجوك لا تخف... ارحل معي فلك مني في كل صحراء واحة

ظل... وأعماقي ما هي إلا بحار هائجة... لكن أيضًا أرجوك لا تخف فلك مني في كل بحر زورق نجاة!

الآن تفضّل معي وادلف إلى عالمي الداخلي... ثبت خطوتك، لا تجعل هذه الغيوم المتلبدة وهذه الشمس المحرقة تفزعك، لا تدع هذه الفيضانات وهذا الجفاف وذاك القحط يرعبك، لا تلتفت لكل المتناقضات التي تحيطك، لا تتراجع وتَعُدْ أدراجك وتدعني وحدي قبطانًا بلا مسافرين... دليلًا بلا رحّالين...

تعال هنا ولنجلس معًا تحت هذه الشجرة العملاقة الشامخة في هذه الغابة العابقة بشتى روائح ندى العشب الأخضر وعطر الياسمين والفل... تعال معي تحت هذه الشجرة الوارفة الظل، شجرة أفكاري وتأملاتي... لأحكي لك وأنت تقطف من أوراقها قصة رحلتي مع الفكر... التي ما أقصر عمرها إذا ما قسناها بعمر النور والقلم والورق وما أطول عمرها إذا ما قسناها بعمر الإحساس والعمق والوجع!

جذور شجرة هذا الفكر تمتد في تربة خصبة صلدة سمادها الألم والمعاناة... فالألم هو أهم الأشياء التي تجلو معدن الإنسان

وتصقله، هو الذي يشف الروح ويفجر مكنونات الإبداع المخزونة في النفس تحت أتربة الصبر والتضحية والتي يفجرها فجأة كحمم البركان حينما تنفد فينا طاقة الاستيعاب والتحمل... فالفرح مهما عظم وكبر وتشعب في حياتنا يظل لا عمق ولا قوة له في الخلق والصقل... الألم وحده هو الذي يرمي بنطفة الفكر العميق في رحم العقل ويكون مولود هذا الحمل هو الإبداع والتعملق في كل مجال فكر وفن وابتكار... الآن مدّ يدك يا رفيقي واقطف ما شئت من أوراق أغصان شجرة أفكاري ولك في كل ورقة سؤال وجواب ولنقرأها معًا:

س- من أنت؟

ج- «يا سائلي أنا لست سوى غيمة شاردة بأمطارها تبحث عن البيادر والسهول والحقول».

«أنا لست سوى نغم يعزف ليلًا ونهارًا... على الوتر الحزين».

«أنا لست سوى شجرة أرز... شامخة صابرة على غدر السنين».

س- أين تتلمذت؟

ج- تتلمذت في مدارس الصبر والحرمان وتخرجت في جامعات الوجع والشقاء... فأصبح لي نفس حسّاسة مرهفة... نفس أديبة... أرهف الظلم خلجاتها... وهذّب الحرمان خفقاتها.

س- من هم معلّموك وماذا علموك؟

ج- المحن معلمتي الأولى، وعلمتني المحن أن أصعب أنواع البكاء هو الضحك أثناء المحنة.

والشدائد معلمتي الثانية وعلمتني الشدائد، أن أصعب أنواع الوقوف هو الشموخ أثناء الشدة.

س- ما مقياس التعارف الحقيقي؟ وما عمره الزمني؟

ج- التعارف الحقيقي لا بد أن يكسر كل القيود وأولها الألقاب والأسماء... التعارف القوي عبر الأفكار، يبدأ في النفس، يحتفظ بجماله وأسراره، الزمن لا يحدد قوة الترابط وتآلف الأفكار، الانقطاع لا يعني محو الذكرى والنسيان، فالاستمرارية ليست مقياسًا للتفاهم والتجاوب، والاختفاء ليس علامة عدم الانسجام وانعدام المودة... فقد نستمر مع من لا يربط بيننا وبينهم سوى

شكليات وقضاء وأقدار، ونبتعد عمن نشاركهم أجمل الأفكار ونتجاوب معهم بينما تفصل بيننا وبينهم أميال وأميال.

س- أي مدن إليها ترحلين وأي مدن عنها تبتعدين؟

ج- مدن الزحام والضجيج أرحل إليها، ففي ضجيجها وفي جنونها... أضيع وتضيع عواطفي فيها... أما مدن الحب فلا أذهب إليها كي لا أعذب نفسي وأواجه حرماني فيها.

س- أجمل زهراتك في القضايا العربية؟

ج- بعد أربعين عامًا أتى الحجر وابتلع الذل والقهر... وخرج الطفل العربي من القمقم ليحقق العزة والنصر... ويعيد الرفعة والكرامة.

س- أجمل زهراتك الاجتماعية...

ج- بنات الرجال يصبرن... بنات الرجال يضحين... يا قاعدة هشة لا أساس من الصحة لها، نقف نحن معشر النساء عليها على أن نقع ونتهشم، أخبريني لِمَ الرجال لا يصبرون ومن غير سبب على زوجاتهم يتزوجون؟

س- أجمل زهراتك الرومانسية؟

ج- ليت العمر يتوقف في نظرة من عينيك واستراحة بين ذراعيك.

س- أجمل زهراتك الانتقامية؟

ج- وهذا القلب الذي خلق للحب قادر أن يسلاك ويبدأ من جديد ولكن مع قلب مثله... خُلق للحب...

س- أجمل زهرات حزنك؟

ج- حاولت يا أحزاني أن أرتق ثقبًا في القلب منك، فاكتشفت أن القلب أصبح كالمنخل من كثرة الثقوب.

س- أجمل زهرات حكمك؟

ج- أخرس لساني ولا تخرس قلمي، إِذْ نفسي ولا تَئِدْ فكري، فالقلم بلسم الألم... ودمت قارئي سالمًا لي وإلى الملتقى في رحلة أخرى.

مسك الختام

■ يخيل إليّ أن قطرة واحدة من هذا الحزن الساكن في هذا القلب كافية أن تغرق العالم أجمع...

فيروس الحب

■ ويختصم الناس في أمر قلمي منهم مؤيّد ومنهم رافض، منهم محب ومنهم كاره... يختصم الناس في تعليل مبدأ فكري ومذهب قلمي... منهم من يقول: مسّ وجنون طارئ... ومنهم من يقول: اعتراف وبوح فاضح... ومنهم من يقول: بلاغة وإبداع وموهبة من خالق الخلائق.

وأنا هنا أقبع في صومعتي بين دهاليز أفكاري وفوق أرصفة أوراقي، أتعكز على قلمي رفيق وحدتي ودربي... أتعكز عليه صامتة سارحة ساخرة، فليس من طبعي أن أشرح أو أعلل أي أمر هو من خصوصياتي، لأني أؤمن أنه من الأفضل أن ندع عيون الجهلاء تراقب سرابًا وندع ألسنة السفهاء تلوك فراغًا... إلا أنه حينما تكثر حولنا الأسئلة والاستفسارات ونصبح عرضة للقيل والقال... حينما يصبح الموضوع أكبر من الصمت، وأقوى من

اللا مبالاة، بعد هذا لا بد للقلم أن يتحرك ليجيب عن الأسئلة والاستفسارات المهذبة... وفي ذات الوقت يبتر ألسنة السفهاء وينير عقول الجهلاء أصحاب وكالات أنباء القيل والقال المتنقلة والمتجولة من دار إلى دار...

بحر العاطفة، عواصف الحب، براكين المشاعر، فيض الإحساس الإنساني... كل هذه الأمور التي أطلقها قلمي، فتفجرت ينابيع صدق عميق وانتماء عظيم فوق أوراق كتاب «فيروس الحب» كل تلك المشاعر والعواطف من حب وحرمان، من وصل وهجران... ذاك الخليط الراقي من الرومانسيات ليس نابعًا من قلب واحد أو فؤاد واحد... أو فكر واحد... ليس هو أدبًا ذاتيًّا لكنه مجموعة ضخمة من الانفعالات والمشاعر الموجودة في كل واحد منا... طبعًا باستثناء من لا مشاعر لهم ومن يعيشون في عالم الغاب وعالم اللا مشاعر... ذاك الخليط الهائل من بحر الوجدانيات والاجتماعيات، هو قطرة من كل قلب مرهف، وذكرى من كل عقل واع، جمعتها ودوّنتها فوق أوراقي... وضعتها أمام عيون قرائي بكل ما فيها من أحاسيس لتكون حينًا صورة ومرجعًا للمشاعر

الراقية والصدق والوفاء... وحينًا آخر عبرة وعِظَة وتحذيرًا من بعض القلوب الخائنة الغادرة...

وأنا أصدقكم القول بالرغم من الاستحسان الذي أقرأه وأسمعه لواقعية حرفي، إلا أني أنا أشعر به جنينًا أمام مشاعر الفرح والمعاناة...

فالكلمة مهما قويت تضعف خاشعة أمام موقف حب ووفاء، وتفجع مصعوقة أمام موقف غدر وخداع... لذا أرجو من كل قارئ يجد في كتاباتي حدثًا مرّ في حياته أو واقعًا يعيشه... أن يغفر لي ضعف تصويري أمام فرحة حب وإخلاص ووفاء ويسامحني على ركاكة تعبيري أمام فجيعة غدر وظلم الأحياء... فأنا خير من يدرك ضخامة مشاعر الحب والإخلاص والوفاء وهول مشاعر وقع فجيعة الغدر والخيانة والخداع.

إن كتاب «فيروس الحب» أهديته للقراء من خلال موهبة فطرية مولودة معي في أعماقي، مواهبنا تُخلق معنا... جاهل من يعتقد أن المواهب تكتسب. المواهب تتطور... تنمو... نعم، لكن محال أن يدَّعي أحد أنه يخلق في الآخرين ويعلمهم مواهبه خاصة الفكر

واتجاهه... ملامح مشاعرنا وأحاسيسنا يعجز أي مبضع جراح أن يغيرها أو يبدلها... يعجز أن يضيفها أو يبترها.

«فيروس الحب» فيروس ليس داءً بل دواء، فيروس ليس سقمًا بل شفاء... لأنه حب الروح والسمو والأخلاق، كتاب «فيروس الحب» هو قطرة أمل وألم من كل قلب، وهو ذكرى شهد وسهد في كل فكر...

والحكم الأول والأخير هو للقارئ الذي يطالبني الآن وبعد أربعة أشهر فقط من صدور الكتاب أن أصدر الطبعة الثانية منه هذا خير حكم على كتاب فيروس الحب...

مسك الختام

وما الحب الأول إلا تلوث وحقن... وتطعيم للقلب بجرثومة هذا الفيروس... ليكسب القلب فيما بعد الحصانة والمناعة الدائمة ضد «فيروس الحب».

نزيف فِكر

■ اشتقت للفرح... اشتقت للمزاح... اشتقت لابتسامة حتى لو كانت ابتسامة كاذبة... أرسمها فوق شفتي... اشتقت للتهريج... «والتنكيت» على أي أمر... اشتقت لشطحات العقل ورعونته وهفواته اللذيذة.

شقيت من التفكير والتنقيب في كل أمر... مللت التعمق في كل ما يدور حولي... زهدت فلسفتي وتعقيدي لكل حركة تمر أمام عيني... سئمت من هذه اللواعج والأشجان التي تتخلل في ذاتي... فتعكر صفائي وتكدر رجائي... تنتابني نوبات ألم لا نظير لها في نفسي وروحي وعقلي... أنياب حيرة وشك وفزع تمزق كل وشيجة من وشائج لحمي ودمي وأعصابي.

فأشعر كأنني طُعم ألقي في بحور لأسماك جائعة... أو فريسة بين مخالب صقور جارحة... ما عدت بحاجة لهذا اللّبّ المحنّك... ولا

لهذا العقل الساخر... ما أحوجني للعودة لسذاجة الفطرة... ودهشة الطفولة وفرحتها بأي جديد مهما كان تافهًا... بغير تكلف ولا رياء ولا خداع.

ما أحوجني لقفزة مهللة وأنا أصفق كما يصفق طفل أغر... فرحًا وهو يظفر بلعبة – مهما رخص ثمنها– تمناها وحصل عليها... واه ما أحوجني لهذا الإحساس الفطري البريء.

ما نملك وما يحيط بنا من هناء ونعيم ومزايا... في عيون الآخرين قد يعني السعادة، أما بالنسبة للنفس المرهفة الشفافة لا يعني شيئًا... ظواهر الأمور تختلف عن بواطنها... ويحي منك يا هذه النفس... تواقة أنت للخلاص من هذا الرياء... تواقة أنت لسكينة الصدق والأمان... لكن أين المفر؟! وكيف السبيل للخلاص؟

ما بالك يا هذا الفكر... أشقيتني... كلما لاحت في سمائي بشائر استقرار وهناء وسعادة لهذه النفس المكلومة، هربت فارًا... أتراك تؤمن بقول الحكيم «المكتوب عليه الشقاء يجب أن يحاسب على كل فرحة تتسرب إليه خلسة من يد القدر». لذا أنت تهرب!

أم تراك تخاف اعتياد الهناء... تخاف إدمان السعادة فتخبو إبداعاتك وينضب عطاؤك؟ يا للهول... أنت تؤثر التيه والوجع والحرمان والضياع لتظل عملاقًا مبدعًا...

سحقًا... سحقًا لك يا هذا الفكر ولإبداعاتك... أجهدتني... أرهقتني... سئمتك... عفتك... مللتك يا هذا الفكر!

إني أطالب بإجازة فورية مفتوحة – بلا قيد ولا شرط– منك يا هذا الفكر.

مسك الختام

وأهاجر... وأبعد... وأرحل... وللهجرة وللبعاد وللرحيل فوائد عديدة... أهمها الهروب... والنسيان!

من كنوز الفكر

«لم ينجح الزمن في ترويض أحد مثلما نجح في ترويضي... فلا أمل يستهويني، ولا غاية تستفزّني، ولا شيء مما يدور تحت أنفي وخلف أذني يثيرني.

لقد هدّني السهر، وبرمت بعبء أثقل كاهلي الضعيف، وما يفتأ يسلط على قلبي الضعيف وأعصابي المخطوفة شواظًا من اللهب يدفئ هذه الصحراء القارصة التي أجوبها وأضرب في خوابيها إلى غير غاية، ولكنه يلتهم منها كل معنى للعزاء وكل رمز للطمأنينة، طاويًا منها كل ما آنس إليه».

«حمزة شحاتة»

الأحزان في مخاضها لا تلد سوى الأحزَان

■ قارئي العزيز... اليوم قبل أن تبدأ معي في الترحال بين أسطري النازفة، قبل أن تتجول بين كلماتي الدامية، أرجوك أحضر بجانبك ضمادًا لتضمد به نزف جملي وتكمد به أنين آلامي.

سامحني اليوم ستتأوه كلماتي أمام عينيك وستتزف أسطري بين يديك، واعذرني إن أنت شعرت أن صياغة جملي ليست كما عوّدتك، جملي اليوم مهزوزة المعاني، ركيكة التعبير... إني أعتذر مسبقًا، فاليوم أنا لست أنا، شيء ما يسحقني، يخنقني، يفنيني، طاقة المقاومة نفدت من أعماقي، محيطات الصبر جفت في شراييني.

قارئي: اليوم أسلوبي هزيل عليل مهزوم مشوَّه، أسلوب معوق يمشي على عكازين، ويجلس فوق كرسي بعجلتين، أسلوب

كصاحبته يحتضر وفي نزاع وبين سكرات الموت يحاول جاهدًا أن يكمل التزاماته واعترافاته قبل أن يدركه الأجل المحتوم.

الحزن ينخر عظامي، الكآبة تعشش في عيوني، الهم يتكئ بكوعه فوق صدري، التعاسة تلتحف جلدي، ويفترش الألم جسدي. هذا حالي طوال أيام عمري، إلا أني كنت دائمًا أمتلك قوة خارقة في إخفاء كل معاناتي، كل أحزاني وشقائي.

لقد تعودت أن أبكي أحزاني ابتسامًا، تعودت أن أنوح ألمي أفراحًا، تعودت أن أصيح عذابي قهقهة، هذه أنا امرأة تمتلك قوة خارقة في فن التمثيل في الخداع والتمويه، كل ما في صدري لا يعلمه سوى ربي.

لقد علمتني أيامي الحزينة كيف أخفي دمعي بالضحك والتهريج، علمتني قسوة زماني كيف أداري أحزاني بالفرح والمزاح، فقبل أن أخرج إلى عالم العيون المراقبة، كنت أضع قناعًا واقيًا من الأفراح الكاذبة، وأرتدي برقعًا من السعادة الوهمية أخفي به واقعي عن العيون المتسائلة، وكلما زادت قسوة أقداري زدت مداراة لمعاناتي، كلما استعرت نيران ظلمي زدت قدرة على التمثيل وزدت

خبرة في فن تشييد مقابر أدفن فيها أتراحي وأكتم فيها صرخات آهات آلامي ونواحي. ومن ثم أشيد عوضًا عنها صروحًا كاذبة لأفراح وسعادة واهمة.

قارئي العزيز: فئة من البشر يقدر لهم وهم في أرحام أمهاتهم أن يكون الغشاء المحيط بهم منسوجًا من الأحزان، والحبل السري الملفوف حول أعناقهم يغذيهم بصديد من الألم، والطلق الذي يصاحب خروجهم إلى النور أثناء مخاض أمهاتهم يلهب أجسادهم بسياط من العذاب، فيخرجون إلى الحياة يصرخون صرخات لا تهدأ كما تهدأ في باقي الأطفال؛ بل تزداد حدة وتدفن في صدورهم ترافقهم طوال رحلة الحياة.

وأنا... ما أنا سوى واحدة من هذه الفئة، أنا ما خلقت إلا من ضلع الأحزان لا – لا بل الأحزان هي التي خلقت من أضلعي. أنا يا رفيقي فوق الحزن حزن، أنا يا صاحبي فوق الألم ألم.

يا ويلي، اليوم طفح الصبر وفاض، وانفجر بركان اليأس وهاج، اليوم ما عدت أمتلك تلك القدرة العجيبة الخارقة في فن المداراة والتمثيل، لم أعد أستطيع أن أظهر بشخصية الإنسانة المرحة التي

تهز المجالس بالأحاديث السعيدة والنكات المتتالية، فيضرب بها المثل في كل مكان وتعتبر رمزًا للسعادة وراحة البال.

لقد فقدت هذه القدرة وافتضح حالي وعذابي، فالقهر المدفون في شراييني أصبحت خطوطه مرسومة في عيوني تقرأه كل العيون، وتفجر بركان علقم المرارة واليأس في صدري فتقيأته صديدًا وعلقمًا وأصبحت حمم انفجاراته تسمعه كل الآذان.

يا بشر، كاذب كاذب كل من فينا يدّعي أنه يستطيع أن يقهر القهر، يا بشر، غبي كل من فينا يتحدى قسوة القدر.

يا زماني... يا زمن الحزن والهم والألم ها أنا أخضع راكعة خائرة القوى مستسلمة لأحكام ظلمك ليس رضًا مني؛ بل وهنًا وضعفًا، فاليوم شرايين العقل انسدت، وشرايين الفكر نضبت، لقد أصبح الحزن عاهة مستديمة في قلبي، في فكري، في كل عضو من أعضاء هذا الجسد المهدود.

إني أعترف أن من يولد من رحم الأحزان، يظل طوال رحلة حياته مخاض أيامه لا تلد سوى أحزان.

زهرة

■ لكل منا وجهان: وجه مزيف نخرج به للعالم... وجه آخر نختلي به مع أنفسنا، وما أصعب حال من يكون له وجهان متناقضان.

كفر ضرب الميت!

■ عزيزي القارئ:

حينما كتبت «الأحزان في مخاضها لا تلد سوى الأحزان».

يومها شعرت أن ذاك المقال هو قمة ما كتبت وما سأكتب في الأحزان والمعاناة... شعرت أن كل كلمة... وكل جملة تعملقت وأصبحت كالمارد في قوة التعبير ودقة الوصف الكامل للأحزان وأوجاعها في مخاضها المتعثر الذي لا يلد سوى الأحزان...

يومها استأذنت قارئي قبل أن أصحبه معي في رحلة عذابي، فليس من الأدب ولا من الذوق أن أكدّر مزاج القارئ لمجرد أني أنا في حالة نزف وآلام واحتراق آمال!

وصاحبني في رحلتي الكثيرون... وبعد الترحال بين أسطري النازفة توجع معي الكثيرون... وسأل عن حالي الكثيرون... فشكرت الجميع... وأنكرت كعادتي أوجاعي وقلت: ما هذا الذي

فوق ورقي سوى مزاج طارئ غريب لا يخصني بأي حال من الأحوال... لا أدري كيف أصابني... هل هو هوس أو سحر... أو لربما هو وحي وإلهام أدبي ليس إلا... لأصف به المعاناة من الأحزان... فقال البعض: جبانة... جبانة أنت... لا تعترفين بما في صدرك سوى فوق الورق، ولا تشكين حالك إلا للذي لنفسك خلق... وقال البعض الآخر لي: كفاك... كفاك سخرية... وجعك أوجعنا... وأحزانك أحزنتنا... نزف سطورك أغرقنا في الألم... وأنين كلماتك أصم فينا السمع... ما أنت يا امرأة إلا أشقى البشر.

وابتسمت في عبث ضاحك... تتوارى وراءه المرارة والحزن الأصيل... الدفين في أعماق نفسي المحتضرة... وقلت: حسنًا... إن كان الحزن يولد فينا كل هذا العمق والفلسفة فهنيئًا.... هنيئًا لي أحزاني... دعوني أجوس فيها... دعوني أخلق من الأحزان والأوجاع الشقاء والعدم.

أناس يسعدهم الذهاب إلى المزادات العالمية «AUCTIONS» ليبتاعوا أندر الحلي والمجوهرات وأقدم التحف واللوحات... أما أنا

فيسعدني أن أذهب إلى «أوكشن» الأحزان لأبتاع مقطوعات نادرة من الأدب العميق لأضعها في طبق بلّوري أمام قارئي حتى لو كان الثمن عصارة الألم والشقاء.

بعد «الأحزان في مخاضها لا تلد سوى الأحزان» لم أحسب حسابًا لأحزان أضخم من أحزان المخاض... نسيت أن وليد المخاض يكبر ويكبر ويتسرب في مسامات عمري... يتناسل... يتكاثر!

آه يا وليد حزني... يا أقسى من حزني الأصيل... اليوم أقول: إن كل ما كان من أحزان بين سطوري وفوق حروفي ما كان إلا ماء عذبًا صافيًا رقراقًا إذا ما قورن بما يتأجج الآن في صدري ويتلاطم بين ضلوعي... يا رفيقي... إني لم أصل بعد إلى مرحلة البوح والتفريغ... إني ما زلت أطفو فوق سطح نفسي... أنهل من صافيها... ريشتي ما خاضت بعد في أعماقي سعير أوجاعي... وقلمي ما بعد عبأته من صديد آلامي!

اليوم أصبح فيك يا زماني...

كفاك... كفاك تعسفًا وتجبرًا... ما بالك يا زمن الظلم والقدر... كلما أردت أن تصيب هدفًا بنوائبك لا تهدف به سوى فؤادي، كلما أردت أن تلهب بسوط حقدك جسدًا لا تجد سوى جثتي الهامدة... الفانية...

ما بالك جعلت مني هدفًا «لتنبش» عليه كل أحزانك وأتراحك... ما هذا الحكم... أهو حكم الظالم القوي على الضعيف العاجز الفاني؟!

يا زمان الأوغاد... كفر... كفر ضرب الميت... أما علمت يا زمنًا أعمى أني منذ زمن طويل أحسب في عداد الأموات؟! ما تمنيت يومًا شيئًا إلا وأتتني نذالة نوائبك وسلبتني إياه... ما أحببت يومًا أحدًا إلا وأتتني حقارة مصائبك وأفقدتني إياه!

أقسم... أقسم بمن رفع السماء وعلّاها... ووضع الأرض وسوّاها... أني بعد اليوم لن أتمنى شيئًا... لن أحب أحدًا... كل من حولي بعد الآن صور باهتة في حياتي... صور لن أشعر بها عظمت أو تفهت... مهما كبرت أو صغرت... اسعد يا زمان الظلم والطغيان... سالب... سالب كل ما في داخلي... مسلوب

الشعور والإحساس... ربحت يا زمن السفهاء معركتك.... وأنخت لك رأسي... ولا يعاب على من مثلي – في شموخي– في صبري... في صلابتي أن يخسر معركة غدر أمام الزمان!

جاش في صدري اليأس والوجع... وهفت روحي للثورة والعصيان... وإحساس نهم يستعر في أحشائي... يولول... يصيح... كفر ضرب الميت... كفر ضرب الميت!

مسك الختام

■ عجزت عن سلام الوداع وخافت أن تخونها قواها... فتنهار وتتراجع رافضة اتفاق الفراق... واتفاق الأحبة على الفراق هو أفجع اتفاق إلا أنه أرقى أنواع الاتفاق... بنوده مكتوبة من دم الحب على ورق التفاهم والتضحية والإخلاص... يا اتفاق الأحبة على الفراق ما أصعبك وما أوجعك من فراق باتفاق!

حَبَّة اللّؤلؤ

■ قال لي: حدثيني عن انتصار العقيل... المرأة وليس الأديبة... وأخبريني عن انتصار العقيل بين الأمس واليوم والغد... ماذا أنجزت وماذا عن يومك وماذا يكون لغدك؟

سؤال طويل... عميق... يتسلل إلى فكري يسألني من أنا؟ ومن أكون؟ رفعت نظري إليه وقلت:

- سيدي... انتصار العقيل المرأة... هي ككل النساء العربيات... نساء يملكن كل شيء... وهن لا يملكن في الواقع... أي شيء... لأننا لا نملك ذاتنا التي تملك الأشياء، فالنساء العربيات هن «المالكات المملوكات»... وحينما يصبح هذا حالنا... يصبح ما نملك لا نملك... فتكبر أوجاعنا وتتفتح جروحنا...!

انتصار العقيل المرأة... هي ذاتها انتصار العقيل الأديبة...

أنا وقلمي توأمان لا ينفصلان... نحن جزء واحد... هو مني وأنا منه... نبضي ما عاد في قلبي إنما نبضي في قلمي... فكيف لي أن أتحدث معك يا سيدي سوى من خلال نبضي؟!

انتصار الأمس... صحراء قاحلة لا أثر للحضارة ولا للتطور ولا للطموح فيها... انتصار الأمس هادئة هدوء الصحراء في أيام الصيف الطويلة... راكدة ركود البحيرات المتجمدة في ليالي الشتاء القارسة...

سنون طويلة مضت... سنون عجاف بلا إنتاج، استنزاف لإرضاء الآخرين... فترة زمنية سحقتني فيها تجارب الحياة تحت أقدامها... ولَوَّكتني المحن بين أنيابها... فتحولت النفس وكأنها «حيوان اللؤلؤ» ذاك الكائن الذي يعيش في محارته يعاني ألمه ووحدته وهو يقاوم ما علق على جسده من الخارج ولا يقوى على المقاومة... وتمضي أيامه يفرز ألمه الأبيض الشفاف الذي ما هو إلا حبة اللؤلؤ!

وانتصار اليوم ما هي إلا «حبة اللؤلؤ»... هي حالة تدفق وإنتاج وعطاء إن شاء الله لا ينضب – حالة ازدهار وتعملق

وذلك بسبب أرصدة ضخمة مخزونة في صوامع النفس كلها في حالة استعار متأجج وغليان... إلا أني والحمد لله أخطو خطوات هادئة متزنة ثابتة في مسيرة عطائي... لا أتعجل أمرًا... أجعل ما في داخلي ينساب من مسامي هادئًا لا يتفجر!

ففي الانسياب يظهر الإبداع والجمال لأننا نخرج ما في الأعماق بتدفق هادئ رقراق كماء سلسبيل... مصاحب بخرير حالم يجذب العيون ويطوق القلوب ويفتن الألباب.

أما التفجر يا سيدي فهو قوة هائلة تُحدث دويًّا مزعجًا... يخطف النظر من العيون ويجفل القلوب فتنفر منه الألباب والعقول!

الإنتاج الأدبي في عطائي له أسلوب راقٍ رزين واعٍ لكي يستطيع أن يحقق أهدافه ورسالته...

وإني أدرك أن القلم أصبح قدري... وما أصعبه من قدر ولا يخفف من معاناتي بعد كل حالة مخاض للكلمات إلا الهدف النبيل الذي أصبو إليه... ألا وهو الدعوة لمخافة الله في المعاملة فيما

بيننا، ونشر الحب والعاطفة الصادقة من خلال شفافية الحرف ونورانيته!

انتصار العقيل الغد... آه من الغد... «الغد في علم الغيب» لا أتعجله ولا أغتال الطريق إليه... الخطط المستقبلية مدروسة وموضوعة... والثقة والإيمان بخالق الخلائق تهيمن على كل خلية من خلايا ذاتي... لي في الغد آمال كثيرة كثيرة... أرجو أن تتحقق... وجميعها أتمنى أن أحققها من خلال حرفي...!

القلب دكان ولكل حبيب مكان

■ «القلب دكّان ولكل حبيب مكان» مثل نردده في ساعات اللهو والمزاح والتهريج.... إلا أني كنت دائمًا بيني وبين نفسي أهزأ من قائله... أنا أرفض هذا المبدأ في الحب، لأني لا أفهم ولا أقرّ عربدة العواطف وطيشها... فانتمائي تجاه أحاسيس قلبي ونبضه أكبر مني وأكبر من كل شيء حولي... ففي عرفي وإيماني أن القلب ليس دكانًا ولا يوجد فيه سوى مكان واحد لإنسان واحد... وحبيب واحد.

لكن عجبي من هذه الأقدار ودورانها كيف تغيّرنا وتغيّر مبادئنا وعقائدنا ودستور حياتنا، فجأة الحب الوحيد في قلبي ما عاد وحيدًا، فجأة اكتشفت أن القلب أصبح دكانًا.

نعم أعترف، قلبي أصبح فجأة دكانًا... أدون اعترافي هذا بكل جرأة ولست خائفة من عواقبه أو العقوبات الناتجة عن تصريحي

هذا... سيعلم كل حبيب في هذا القلب وكل عزيز أن له شريكًا، وبعد اعترافي هذا له الحق في الاختيار بين البقاء أو الرحيل، الرضا أو السخط، لن أحاول أن أسترضي أحدًا وأستبقي أحدًا، يكفيني أني لا أخدع أحدًا... فحينما تغيرت الموازين في هذا القلب... اعترفت وأنا أؤمن أن الاعتراف بالحب فضيلة... والاعتراف بالبغض رذيلة...

كيف حدث هذا التغير وكيف انقلب كل شيء في هذا القلب رأسًا على عقب؟ لا أعلم... إلا أني أدرك أنه رويدًا رويدًا وفي كل يوم يتسلل إلى قلبي حبيب وعزيز جديد.

فمنذ أن بدأت أسمع آراء قرّائي وبدأت تردني رسائلهم تباعًا... منذ ذاك الحين بدأت مبادئي في الحب تتغير، لم يعد لي حبيب واحد يهيمن على جميع منافذ قلبي ويتربع فوق عرشه، فها أنا أعترف وأقر وأنا بكامل قواي العقلية وبدون أي ضغوط نفسية، لقد أصبح: «قلبي دكان ولكل قارئ مكان»... نعم لكل قارئة وقارئ محبة ومعزّة وخانة خاصة به في هذا القلب... القلب الكبير المحب المعطاء، كل ما يردني من قرائي شفهيًّا كان أو كتابيًّا يهزني

يشدّني يسعدني... مديحًا كان أم ذمًّا، رضًا كان أم غضبًا، استحسانًا كان أم عتابًا... كل تعليق... كل تعليق يقول لي بصوت مرتفع:

- انتصار أنت كتاب ملموس محسوس، أنت كيان شامخ يتفاعل مع الآخرين والآخرون يتفاعلون معك...

أخيرًا... وبعد أن تشققت قدماي ونزفت من وعورة رحلة الوحدة والكفاح بدأت أشعر بأن هناك من يهتم... الله ما أحوج القلب والفكر لشخص ما يهتم... يهتم...

شعور بالنصر والعملقة والرضا حينما نشعر أن هناك مَن يتجاوب، مَن ينتظر لِيثني أو ليعاقب... تَثْلُجُ الأجواء من حولنا... تقتلنا قتلًا بطيئًا قاسيًا، خاصة إن كنا نملك نفسًا دافئة متوهّجة متّقدة.

نعم، من قرائي عادت ثقتي بنفسي، بوجودي، بنبضي... في مكان... ما... بل في أكثر من مكان ومكان يوجد من يسمعني من يترقبني ويراقبني... إحساس بالنشوة يدغدغ مشاعري وكياني الإنساني الذي ضيعه الزمن فوجدته صدفة بين أوراقي وقرأت في

عيون كلمات قرائي... إحساس رائع فجّر مكامن العطاء المردومة في أعماقي... إحساس مرح يُشاغبني، يمسح دموعي يضم أشتاتي يحولني إلى طفلة أدور حول نفسي... أنغمس في أوراقي، أقبّل قلمي، أسعد بأيامي... الله ما أروع أن نعطي ونأخذ... ما أروع التجاوب وما أقسى اللا مبالاة... لا ينفد العطاء ولا يجف التدفق ولا تنضب المنابع إلا بعدم التجاوب...

أخبروني عن نبع يُنْهَلُ منه دومًا ولَا مطر يصبّ فيه... ولم يجفّ! أخبروني عن نبت تُقطف ثماره دومًا ولا يد ترويه... ولم يمت! لا حياة بلا أخذ وعطاء... لا حياة بلا تفاعل... لقد عدت إلى القلم بعد هجراني له سنين وسنين... وبلا فلسفة وبلا تعقيد اجتمعت أنا وقارئي تحت ظل الحروف والكلمات فوق أرض أوراقي، لنجد معًا ظلًّا وارفًا وواحات شاسعة للفكر السديد والتأمل العميق في كل أمر هيّن وصعب...

حقًّا في بداية مشواري مع القلم كتبت لنفسي، لانتصار أحاورها فلم أجد أفضل من ذاتي... أصادقها... وصدق الأخ محمود السعدني حينما قال معلّقًا على كتابي «فيروس الحب»:

«والكاتبة تناجي نفسها وتحاور روحها، والكتاب كله أشبه بمونولوج، الكاتبة هي التي تتحدث، والكاتبة هي التي تستمع... نعم، إنه حوار مع النفس».

لذا لم أبخل على نفسي، فأهديتها باكورة إنتاجي الأدبي أهديت كتابي لأَنَايَ، وليست هذه نرجسية وأنانية بل هي قمة العدل والإنصاف لنفسي المعطاءة... أنا فداء لأنا... فمن لا يحب نفسه لا يعرف كيف يحب الآخرين، من لا يقوّم نفسه لا يعرف كيف يقوّم الآخرين... من لا يُسعد نفسه لا يعرف كيف يُسعد الآخرين... والآن بعد أن أرضيت نفسي وحققت طموحها، الآن أنا أكتب للقارئ ومن القارئ وفي كل يوم يزداد عدد الأحبة فيزداد عدد الخانات، حتى غدا هذا القلب خلية يتزاحم فيها الرّوّاد من كل صوب واتجاه، حتى الغاضب والناقد يحتل بجدارة خانة من الخانات... الجميع يرون نبض قلبي بتجاوبهم وانفعالهم معي... فيتدفق في المقابل من جوانب هذا القلب وهذا الفكر شهد العطاء.

مسك الختام

■ وتظل نقطة وصل جميع خانات قلبي... أنت... أنت!

مركاز الحب

مركاز الحب

■ جلست عند قدميه... وركزت رأسها على ركبتيه... مد يده وراح يجوس بها بين خصلات شعرها المنثور الثائر فوق كتفيها... ثم مد يده وأمسك بذقنها رافعًا وجهها تِجاهه... وراحت عيناه تحومان في ملامحها الهادئة تتأملها في تمعن وهدوء.... شعر بزفرة حارة... وتنهيدة دافئة تخرج من بين ضلوعه... وفي خروجها سرت قشعريرة في نفسه فأثارت فيه شعورًا لذيذًا من الارتياح... قال لها بصوت رجولي دافئ حنون:

- ما أروعك... ما أروعك... ما أروع هذا الوجه بكل تفاصيل ملامحه... هذه العيون الواسعة الكحيلة... وهذا الأنف الشامخ... وهذه الشفاه المكتنزة... وهذه القامة الهيفاء ذات الطلة البهية الملفتة لكل عين ناظرة... آه...

أما صوتك، صوتك، فهو ذاك السر الغامض السحري الذي كان أول همزة وصل بيننا... وما أروعك... كل شيء فيك بلا استثناء... رائع... وأروع ما فيك ما لا تراه العين بل يدركه الإحساس... فكرك.... عظمتك... عنفوانك... دفئك... كظبية... كمهرة عربية... ما أروعك...

أعادت رأسها بهدوء وركزته على ركبتيه... شعرت أن صمتها أبلغ جواب لحديثه... وأعمق تجاوب منها لمشاعره الراقية نحوها... أغمضت عينيها وتذكرت أول مرة سمع فيها صوتها من خلال الهاتف... كان الهدف من الحديث عملًا مشتركًا... قالت له وهي تنهي الحديث:

- شكرًا لك سيدي... على تجاوبك واهتمامك.... أرجو أن تكون معرفة خير.

أنهت حديثها معه... دون أن يترك الحديث أثرًا في نفسها. أما هو فقد كان لصوتها ورنّته الواثقة مفعول السحر في اللب... والمهدئ في الأعصاب.

في البداية لم تشعر هي به... فقد كانت غارقة في بحور من الأحزان والهموم... وكانت طموحاتها العملية شغلها الشاغل والمنقذ الوحيد لها من يمّ الأحزان...

ومرت أيامهما وعلاقتهما مغلَّفة بالرسميات والمجاملات من طرفها... والتودد الراقي المهذب من طرفه... وفجأة مرضت... فرقدت في أحد المستشفيات... وإذا برسول يحمل لها في كل صباح باقة من الورد... ومعها أرق وأعذب الأماني... في تلك الفترة شعرت به يقترب من مشاعرها المتوجسة من كل طارق غريب... شعرت بأن كل أشيائها الصغيرة أصبحت أشياءه الكبيرة... وهكذا بدأ حبه الراقي يغزو ذبذبات فكرها فيحاصرها. آه من حصار الفكر، ما بعده حصار... وفي ذات صباح أمسكت بسماعة الهاتف... وطلبت رقمه... أتاها صوته قائلًا مجرد أن سمع صوتها:

- هلا... معقول! إني في هذه اللحظة أمد يدي للهاتف لأطلبك...

قالت بهدوء وارتباك:

- الحقيقة اتصلت بك رغم أنه لا يوجد سبب لاتصالي...

أجاب بسرعة وثقة:

- أنا كذلك... أصدقك القول... اعتزمت أن أتصل بك رغم أنه لا يوجد سبب لاتصالي...

صمتت وصمت ثم قال ضاحكًا مقلّدًا اللهجة المصرية:

- «دا كلام خطير... خطير قوي».

ضحكت بأنوثة وسعادة غمرت رنة ضحكتها... فقد فهمت ما يلمّح إليه وأجابته بذات اللهجة:

- آ... آ... والنبي.

ومنذ ذلك اليوم بدأ الحب يتسلل لحديثهما ويتسرب لنقاشهما... كان حوارهما دائمًا حوار عمالقة، حب الفكر والروح والقلب...

فتحت عينيها وهي تسترجع نفسها في مدن الذكريات لتعود إلى مركازهما، مركاز الحب، نظرت إليه ونظر إليها... قلباهما كفَّتا ميزان للحب... تعادل ثقل الحب فيهما فتساوتا!

هذا هو الحب الصادق الحقيقي الذي نلجأ إليه... لا لنهرب من أنفسنا بل لنجد أنفسنا فيه.

مسك الختام

■ قال لها:

- اعذريني سيدتي... اليوم خلا مركازنا من أصول كرم الضيافة... اعذريني لهفتي عليك أنستني كل شيء...

رفعت يدها ووضعت أطراف أصابعها فوق شفتيه... وقالت هامسة:

- دع عنك هذه الاعتذارات... لا أنا ولا أنت أتينا هنا لنحصل على شيء نستطيع أن نجده في أي مكان... أنا وأنت أتينا هنا لنجد ما لا نجده في أي مكان... ما لا نجده إلا هنا في مركازنا... مركاز الحب!

أدمنتك

■ في بادئ الأمر لم يهتم أحد بهذه العادة الشاذة، حتى هي نفسها لا تدري كيف بدأت هذه العادة معها... واستعبدتها... كانت لا شعوريًا بين حين وآخر تشم ظهر يدها... وتغمض عينيها في نشوة وتسبح في عالم آخر... عالم من الأفكار غريب... مليء بالسعادة والأحلام!

ومع مرور الوقت أدمنت وأصبحت هذه العادة جزءًا منها... العيون جميعها من حولها تتساءل: ماذا دهاها... ماذا جرى لها؟! وهي غافلة عن كل شيء... تهيم في عالم عجيب غريب... ولم تلاحظ الهم والألم اللذين بديا واضحين على وجه أمها... إلى أن سألتها في أحد الأيام... ماذا دهاك... لماذا تشمين على ظهر يدك... وحبست الأم دموعها وهي تقول: أخبريني يا ابنتي الحقيقة

كي أساعدك... هل تستنشقين... هل تستنشقين؟! وفجعها السؤال... وآلمتها هذه التهمة....

فأجابت بسرعة: أعود بالله... شمي... شمي يا أمي هذه الرائحة... إنها رائحة عطري المفضل... لقد اعتدت أن أضعها على ظهر يدي وأشمها دون أن يخطر ببالي أن هذه العادة ستكون مصدر قلق بالنسبة إليك.... وأن الظنون ستأخذك إلى هذا الحد!

واقتربت الأم... وشمّت ظهر يد ابنتها وقالت مبتسمة مبتهجة: – حقًّا إنها رائحة جميلة...

وضحكت الفتاة مسرورة وقالت وهي تضم أمها إلى صدرها... ألم أقل لك إنها رائحة عطري المفضل... وابتسمت في سرها وهي تردد بينها وبين نفسها: إنها رائحة عطر حبيبي!

مسك الختام

■ ولأن حبّك خرافيّ طرقت أبواب جميع العرّافين والعرّافات... وبحثت عن رسمك واسمك في خطوط قهوتي... وقرأت طالعي معك في كل الأبراج والأفلاك علَّني أهتدي إلى درب

الصواب في هواك... فينقذني من هذا الألم والحنين إلى رؤياك!

في هواك عيون الليل تغزل لك من حروفي قصورًا...وفي هجرك صمت الكلام ينسج لك من حروفي قصائد... يا من علمتني أدب الهوى... وأرسيت في قلبي قواعد الغرام... يا حبًّا خرافيًّا خلّدت به حرفي... ووجدت في حناياه ذاتي... أهديك عمري فخذه إن شئت وافعل به ما تشاء ودمت لي سالمًا!

مرسُول الحب

■ ونامت طريحة الفراش، يقتاتها المرض وتفترسها آلام حادة لا تستطيع تحديد مكانها، ولا تدري أين مصدرها، كل عضو في جسدها يؤلمها، يوجعها، أسبوع كامل في كل يوم كانت حالتها تسوء أكثر وأكثر، واحتار الطبيب في تشخيص مرضها وأسبابه، وأكثر ما حيّر الطبيب الصمت الذي غلّف نفسها فرغم ما يبدو عليها من إرهاق ومعاناة إلا أنها لم تشك من آلامها، لم تبح للطبيب بمعاناتها، التجأت إلى الصمت، فكانت تغمض عينيها ساعات طويلة تفكر، تتألم، تتعذب لكن بهدوء. وأتى الأهل والأصدقاء، الجميع أتى يسأل، يطمئن على صحتها وحالها، وكانت تفتح عينيها تنظر إلى كل زائر، تبحث في كل القسمات عن شيء مجهول، ولكن تعود نظراتها خائبة يائسة، وتعود تغمض عينيها يعتصرها أمل وألم ويخنقها حلم كاذب.

وفي ذاك المساء أتاها مرسول مجهول يحمل لها رسالة معها هدية ملفوفة بعناية فائقة، لم تكن تعرف أن هذا المرسول ما هو إلا مرسول الحب، أمسكت الرسالة وفتحتها وبدأت تقرأ أجمل وأحلى ما قرأت عيناها:

حبيبتي:

سلمت من كل أنّة، وشافاك الله من كل علة، فكرت مع رسالتي هذه أن أبعث لك بباقة ورد ولكني أعرف أن عمر الورد قصير وبعد يوم أو يومين بالأكثر، سيذبل وستلقين به في سلة المهملات، ففكرت أن أبعث لك بصحن مليء بالشوكولا ولكن أكيد الشوكولا لا بد وأن تؤكل فلا يبقى منها شيء للذكريات ثم قررت أن أبعث لك بقطعة ذهبية ترتدينها، ولكني خفت مع الأيام أن تملّي منها وتضعيها جانبًا وتنسيها مع أشيائك المنسية. أخيرًا قررت ولا قرار بعد هذا القرار يا حبيبتي أن أهديك هدية لا قيمة لشيء بعد قيمتها، قررت أن أهديك هدية تحفظك وتحفظينها إن شاء الله، قررت يا حبيبتي أن أهديك «كتاب الله»، واعذري

غيابي المفاجئ وإلى أن نلتقي قريبًا جدًّا كوني واثقة أنه لا وطن لي ولا ملجأ سوى تلك العينين السوداوين «عيون حبيبتي».

وضمت الهداية الغالية والرسالة إلى صدرها وأغمضت عينيها واستسلمت لنوم هادئ عميق، وفي اليوم التالي غادرت سريرها وقد تماثلت تمامًا للشفاء.

السّاعة العَاشرة

■ وتدقّ الساعة العاشرة، وتخرس أنفاسي وتتحجر نظراتي، ويتأكسد إحساسي داخل عقارب الساعة التي تصبح سلحفائية الحركة.

حينما تدق الساعة العاشرة صباحًا، الكرة الأرضية تقف عن دورانها، الشمس تكسر أشعتها، الهواء يمتص أوكسجينه، الريح تهدأ في جريانها فتثبت الأشجار عن ميلانها، كل شيء في الطبيعة ينتظر معي موعدك، ينتظر أن تفي بوعدك، أن تعود كما عهدتك إلى عهدك.

الساعة العاشرة ودقيقة ودقيقتان، وخمس، وعشر – وينتهي موعد موعدنا، اليوم كالبارحة وككل الأيام السابقة لم تذكره ولم تلتزم بالموعد المحدد بيننا.

وتعود الأرض والشمس والهواء والريح والأشجار ببطء، بصمت إلى حركتها الروتينية، إلى دورانها المعتاد وكل منهم يمر بي، يلمس رأسي يمسح دمعي، يطيّب خاطري، يهدّئ بالي، غدًا سيلبي، غدًا في الساعة العاشرة لن ينسى.

وفي كل يوم، في الساعة العاشرة تتكرر الصورة، أنا ومعي الطبيعة حبيبتي، تشل حركتنا تحبس أنفاسنا، ننتظر نحسب الثواني والدقائق، ويمر موعدنا دون أن تذكره، يمر، يطأ اليابس والأخضر في عمري وأنت آخر من يشعر أو يدري. ساعات يومي كلها تهون وتمضي، آلام العمر كلها مقدور عليها، إلا وطأة الآلام التي أعانيها في ذاك الموعد، موعد ثابت في ذهني محفور في قلبي، منسوج في إحساسي، موعد ملغي من فكرك مشطوب في أجندة عواطفك محذوف من مفكرة ذكرياتك.

وتبرد قهوتي الساخنة وأنا أنتظرك، ويسيل كحل عيوني مع دمعي فوق وجنتي وأنا أذكرك، ويلوكني يأسي وأنا أبحث ولا أجد لك عذرًا لغيابك، وأرفع رأسي إلى السماء أطلق زفرة ملتهبة، ما أصعب رحيل الأمل، ما أصعب هجرة الأحباء بلا سبب!

يا غريبًا أنت كل معارفي وأحبتي، يا غريبًا لولاه ما عرفت معنى الهناء، سأظل أشعل سراجي وأوقد ناري أحمص فوقها حبات بن قهوتي، وأضع شالي حول كتفي أتَّقي به صقيع برد أيامي، سأظل أنتظرك، لا بد أنك آت، لا بد أنك يومًا ما ستضيء بيديك جميع قناديلي، وستشرب معي قهوتي، وستعيد الحرارة والدفء بحنانك إلى أيام عمري، لا بد أنك آت، لا بد أن تدق يومًا ما، في الساعة العاشرة صباحًا بابي وأراك بلا موعد مسبق واقفًا أمامي.

مسك الختام

أخطأت يوم قلت لك: غب أو لا تغب، احضر أو لا تحضر، فغيابك حضور وحضورك هو الحضور، أصحح خطئي: أرجوك لا تغب، غيابك هو الغياب وما أصعبه من غياب!

بوصلة الحب

■ ... وحبك يزورني في السنة صدفة... والكلمة الحلوة تأتيني منك هفوة... والحنان تبعثه لي عيناك غلطة... والشوق ترسله لي مرة واحدة... أخاف ألا تعود ولا ترسله بالمرة!

ولكن إغراء الآمال... ووعود الأحلام تدفعني أن أنتظر... أن أتمنى... لا بد أن تعاود الكرّة... حتى لو مرة واحدة بعد كل مرة...

همست لي باسمي فانتشيت طربًا... اسمي من بين شفتيك يا حبيبي أصبح اسمًا على مسمى... وهمست لي «أنت قمتي... أنت الهدف الذي به أحيا... حبيبتي لا تجزعي... لا تقلقي... مهما بعدت عنك أنت في صدري دائمًا... وإليك أنت وحدك... حبي وعودتي ومرجعي».

فديتك عمري... يا سلمي وانتصاري... يا صبحي ومسائي... يا شروقي وغروبي... يا أمسي ويومي وغدي... يا روعة فجري... وسكينة ليلي... تعال واجلس أمامي... دع عيوني تقرأ في عينيك ما تبقّى لي من أخبار حبي لديك... تعال اجلس بجانبي... دع يدي تلمس راحتيك وتتحسس الدفء المخبّأ لي في عينيك... تعال واسترح وأرحني... أعياك الترحال وأعياني الانتظار... ما أنت إلا بحّار عنيد... كلما ضل الطريق عاد مرهقًا تستقبله موانئ حبي... دون أن تسأله... إلى متى يظل يغريك الضياع والترحال؟! يا أعز حبيب.

تعال عانق الإخلاص فيّ واطمئن... احضن الوفاء فيّ واسترح... حبيبي ازرعني نبتة ياسمين عطرة فوق وسادتك... قطّرني قطرة ندى حب في دروبك.... أنشدني لحن هوى ملتاع في حديثك!

حبيبي... ثبتني في صدرك بوصلة حب ترشدك إلى اتجاهات قلبك ثم ارحل متى شئت... فبوصلة الحب المغروسة لي في صدرك ستعيدك حيث قلبك يشاء وحيث أنا أشاء!

مسك الختام

■ معك الجنون حكمة... والتهور رزانة... والاندفاع انضباط... معك المر حلو... والصعب سهل... والقسوة حنان... معك يحلو لي التكرار والتطويل... والإطناب في كل أمر... ويحلو لي الصبر والدمع والغفران!

غرباء

■ يا رجلًا يمر بي بعد غياب، فيلهب فكري ويوقظ عواطفي ويحطم حصوني ويشعل الحرائق في مُدني ثم يرحل عني.
يا رجلًا حضوره يضرم نار الأشواق الخامدة في صدري ويوقظ أحلام الآمال الغافية في عيوني ويطلق سراح أفكار الحب من قيودها البالية في ذهني.

يا رجلًا حضوره في كل مرة بعد غياب ما هو إلا حضور العذاب وعودة الأسى والأنين من لوعة الحنين والاشتياق، فيدفع بي في عراك بين النفس والذات، ويوقعني في حيرة القرار أعود أو لا أعود؟

اليوم أحسم أمري وأشد عزمي وأصرخ بك بكل قوتي وبكل ضعفي:

- يا رجلًا أحببته بكل جوارحي وتفاصيل عمري، إني أطالبك ألا تحضر، أرجوك ارحل عني، دع الأيام تحول بيننا، تفرّقنا، تقطع حبال الأماني الواهمة في قلوبنا، ما فائدة حضورك، وغيابك أمر محتوم؟ ما فائدة وصلك، وهجرك قدر مكتوب؟ أنت في حياتي ضيف بل أنت طيف، تمر بي مرورًا عابرًا لكنه مرور يؤجج جمرة الإخلاص والوفاء كلما خبت في نفسي، ويشعل نار الأشواق والحنين الخامدة بين أضلعي، فأعود إليك كأنك ما غبت ولا هجرت ولا أظلمت ليالي طويلة في عمري.

نعم تغيب، وفي غيابك تثوب هذه النفس إلى رشدها وتعتاد البعاد وتدمن الفراق وتوقن أن ما بيننا ما هو إلا خيال في خيال وضرب من ضروب المحال، ولكنك تعود... تعود، أجدك فجأة تقف أمامي تكفكف بحنانك دموع ألم الفراق، وتخلق لغيابك بدل العذر أعذارًا، وتداوي بدفئك جراح البعاد وتعيد لي أجمل الأماني والأحلام فأعود.

يا لضعفي... أعود إليك أهتزّ فرحًا أترنّح طربًا وأنا أنظر إليك، تعانقك عيوني مصدقة ما تقرأ من عهود ووعود في عينيك أعود إليك غافرة ناسية وتمضي أيامي معك ما بين حضور وغياب وغياب وحضور، وفي كل مرة صعب أن أعود إلى هواك والأصعب أن أعود وأسلاك.

اليوم ثِقل هذا الحب المرهق أرهقني، فبالرغم من أن عيوني ما زالت تبحث عنك في كل مكان، لكن القلب أصبح يئن متألمًا متعبًا يتمنّى أن يرتاح، يتمنى أن لا يلقاك.

لقد اشتعل الحب شيبًا، وعجز القلب هرمًا والتهبت العيون دمعًا، فأرجوك ارحل، ارحل عني، إني أُعفيك مني ومن حبي.

وا حزني عليك يا هذا الفكر... وا سخطي عليك يا هذا القلب، وا خجلي منكِ يا أنا، يا كبريائي، يا عزّة نفسي، كيف جعلتك لعبة في يد الزمان، اليوم كل ما في داخلي يرتد عن هواك، حتى قلبي المسكين أخيرًا انضم إلى عقلي وساند رشدي واعتذر لكبريائي وعزة نفسي وأعلن انسحابه بعد أن استسلم معترفًا في تورطه في غلطة هواك، لقد خذلتني، خذلت الحب الكبير المشيدة

صروحه لك في أعماقي، وزلزلت قواعده، وصدعت جداره، وجعلت أحلامي فيك ومعك ترتدي ثوب الواقع، فأصبحت قادرة على أن أقرأ على جبيني قدرًا مكتوبًا: لست لك ولست لي... تقلب أمزجتك وأجوائك وعدم مراعاتك لمشاعري يجعلني أتجرد من وهم الانتماء والإخلاص لهواك، فأدفنه بيدي بعيدًا في مقابر الذكريات، قبل أن يدمرني بسببه الإحساس بالهوان.

أنت رجل تتمسك بي كما يتمسك الإقطاعي بكل ممتلكاته حتى لو كانت فائضة لديه، ويعاودها ما بين حين وآخر ليس حبًّا وتعلّقًا بها؛ بل فقط ليطمئن أنها ما زالت خاضعة لسلطته وما زالت ملك هواه.

وأنا امرأة أتمسك بك كما تتمسك دودة القز بشرنقة الحرير ترفض أن تتحول إلى فراشة، وتخرج إلى النور لأنها تشعر بالإخلاص والانتماء، رغم أنها في الشرنقة ما هي إلا سجينة مكبلة، أمة للإخلاص.

حب التملك من طرفك، والتمسك بالوفاء والإخلاص من طرفي، هذه الدوافع لا تكفي للاستمرار، فلنفترق بسلام وانتصار ونعود كما بدأنا غرباء غرباء...

زهرة

■ يا نزف جرح عجزت أن أشفيه، علّ نار الفراق تدمغه فتشفيه.

مطلوب قلب للإيجار

■ «إعلان مهمّ جدًّا: مطلوب فورًا قلب للإيجار، قلب يطلّ على نهر الإخلاص والثقة وتشع في حجراته شمس الوفاء والهناء، ويهب في جوانبه نسيم الشوق والهوى.

مطلوب فورًا... قلب للإيجار أساسه من الحب والهيام، جدرانه من السكينة والوئام، أسقفه الود والحنان، في أرجائه ألحان من اللهفة والتجدد والانتماء».

نشر هذا الإعلان في الصحف المحلية وفي صدر الصفحة الأولى، فصاحبة الإعلان امرأة تعيش منذ سنين طويلة في العراء، لعدم ثقتها بمساكن العواطف المعروضة في أسواق العقار، وحينما أضناها سكن «مساكن اللا حبّ»... وعذّبتها الوحدة وشعرت أنها بأمسّ الحاجة لمسكن خاص بها يضم مشاعرها الجياشة

وعواطفها المعطاءة في هذا الزمن من كساد العواطف وفساد المشاعر.

قررت أن تسعى جاهدة وتبحث بنفسها عن قلب للإيجار تسكن فيه، وطبعًا الإعلان أفضل الوسائل للعثور على المنشود أو تصريف غير المرغوب... فيا سادة يا كرام، الإعلان أفضل وسيلة يلجأ لها الأذكياء لتحقيق الرغبات... ولأن بطلتنا امرأة جدًّا ذكية، لجأت للإعلان وبالفعل في اليوم التالي للإعلان الفريد وقفت أمام بابها طوابير لها بداية وليس لها نهاية من القلوب الخاوية المعروضة للإيجار... الله يا سلام ما أكثرها وما أرخصها في هذا الزمان...

المهم حضرت القلوب، كل قلب يحمل أوراق اعتماده للدخول في هذه المنافسة، «فالزبونة»، عذرًا، أقصد المستأجرة امرأة آية في الجمال والكمال، ووطأة قدمها على أرض أي قلب بركة حتى لو لم تدفع أي إيجار، المهم أن تدخل ست الحسن والجمال ويدرج اسمها في لائحة المستأجرين والسكّان...

جلست على مقعدها الوثير، وبهدوء عقل رزين بدأت تستعرض بالترتيب كل أصحاب القلوب الخاوية المعروضة للإيجار، صعقت

لكثرتها ولكنها أرادت أن تتروى فصعب أن تظل طوال عمرها معتصمة في عراء اللا حبّ، ومن ثم تقع في مقلب ونكبة بسبب الحب... إذن الاختيار يجب أن يتبع حكمة «في التأني السلامة وفي العجلة الندامة».

أقبل عليها صاحب القلب الأول يعرض بفخر قلبه فقال متباهيًا:

- سيدتي لا أخفي عليك الحقيقة، فقلبي كبير كبير جدًّا... أنا بكل فخر لي قلب يتسع لكل البشر... ستسكنين في قلبي ومعك الكثيرات فلا ضيق سوى في القلب... وأنا كما قلت لك لي قلب واسع نوافذه مفتوحة للهوى وأبوابه دائمًا «مشرَعة» تستقبل كل طارق فأنا مضياف مجامل كريم لا أردّ أي حبيب.

ذهلت من صراحته وقالت:

- أشكر صراحتك، ولكني آسفة إني أتوق لمسكن منفرد خاص بي... ما اعتدت الشراكة في أي أمر من أمور حياتي

فكيف أرتضي بالشراكة في مسكني... هذا ليس مسكنًا، هذا جمعية تعاونية!

نظر إليها في استغراب وهز كتفيه، هو يؤمن بالسكن الجماعي والاشتراكية في العواطف، شعر أنها امرأة رجعية بالأفكار تحب السيطرة والتملك، ولا تفهم الديمقراطية في الحب. انصرف غير مبالٍ. ودخل بعده صاحب القلب الثاني عسكري الملامح... قال بكل صراحة وحزم:

- أبشري سيدتي، طلبك عندي ومسكنك هنا في قلبي... هذا القلب لم تفتح أبوابه من قبل، ونوافذه دائمًا موصدة، وشرفاته لا تطل على شيء، إن سكنت هذا القلب فلن يدخل عليك أحد ولن تخرجي لأحد... صومعة من الحب ستسهرين على راحته ليلًا ونهارًا وهو كذلك لا شغل له سواك...

ذعرت من الحديث وقالت بارتباك:

- لا... لا... ويح عمري كيف أسكن في صومعة... أتريدني أن أتنسّك في قلبك! أهجر الخلق، أخنق ذاتي بلا هواء

متجدد، هذا سجن من العواطف، الزائد كالناقص... كل ما زاد عن حدّه انقلب إلى ضده...

نظر إليها مشمئزًّا، شعر أنها امرأة مستهترة لعوب، قلبه... لا يفتح بابه سوى مرة واحدة في العمر، والداخل فيه مفقود في حساب البشر مولود في حسابه، وهذا شرف هي غير جديرة به. خرج من عندها وهي في حالة ذعر منه وهو في حالة اشمئزاز منها.

دخل صاحب قلب ثالث متأنق متعجرف وقال:

- أنا مطلوبك... أنا المسكن المناسب لك، كل ما تريدين وكل ما كتبت في الإعلان من مواصفات موجودة في قلبي... لقد قرأت إعلانك ورتبت كل شيء فيّ على مواصفاته وبرمجت كل خططي على خطاويه...

نظرت إليه والدهشة والذعر منه ومن أسلوبه الغريب يعقدان لسانها... كيف يبرمج ويرتب ذاته حسب الإعلان. هذه المواصفات المفروض أن تكون فيه دون أن يفتعلها ويوجدها، وقفت بسرعة، لم تنطق بحرف تركت المكان دون أن تلتفت للطوابير الواقفة أمام بابها.

وفي اليوم التالي نشر هذا الإعلان في الصحف المحلية وعلى الصفحة الأولى.

«أعتذر لأصحاب القلوب الخاوية... كل شيء نجده من خلال الإعلان إلا مساكن الحب فهذه لا تؤجَّر ولا تُباع ولا تشترى، نعثر عليها حينما يشاء القدر ونسكنها ونقبلها بكل حسناتها وبكل عيوبها لأنها مشيئة القدر».

مسك الختام

■ وقلوبنا ليست دكاكين وليست معروضة للإيجار تبادلنا المفاتيح... ولسنا بحاجة لوسيط ولا لسمسار.

أَفِقْ يا قلب

■ وغفرت بك للزمان كل أفعاله....

وصفحت بك للماضي كل آلامه...

وصحت: أفق... أفق يا قلب من سباتك...

أفق لا تخف، آن الأوان أن تنطلق...

أفق يا قلب وكفاك وجعًا وقلقًا...

وكفاك أرقًا...

أفق وحلّقْ مختالًا بحبيبك إلى أعلىٰ...

أعلى أفق!

آه يا هوى...

خذني فوق جناحيك لأحلّق مع النجوم...

فوق السحاب...

فوق الأحلام...

فوق الخيال...

كفى القلب جراحًا ونواحًا...

كفاه مخاض أحزان وأتراح...

طمئنه يا هوى...

الحب اليوم ما عاد ألمًا أو أنينًا...

طمئنه يا هوى...

حبنا اليوم صنعه المستحيل...

حبيبنا معجزة قوة القدر...

قلبه نبض وحنين...

وفي عينيه صدق وإخلاص العالم أجمعين...

ودفء حنان صدره سيعوّضنا يا قلب...

سيعوّضنا يا قلب ألم وغدر كل السنين...

يا هوى اذبحني...

اذبحني بالشوق واللهفة

من الوريد إلى الوريد...

وانهمري يا غيمةَ الحب

فوق بَوادي القلب الحزين...

رذاذًا وغيثًا ومطرًا....

حوّلي خريفه إلى ربيع...

وحطّي يا ديمةَ الهوى رحالك

فوق رمال صحاري العمر

حوّليها إلى واحات وينابيع...

يزهر فيها كل زهر بريّ غريب عجيب...

آه يا هوى...

آه يا هوى...

حبيبنا اليوم صنعه وأهداه لنا المستحيل!

خوَاطر مبَعثرة

- يا لائمي في الهوى.. عذركَ أنك ما جرّبت الهوى... لو جرّبته لعذرتني... لو جرّبته ما لُمتَني... لو جرّبته لغفرت لي!
- في الدنيا عذابان:

  عذاب من الدنيا في وصل من لا نحب!

  وعذاب من الآخرة في هجر من نحب!
- مشكلتي معك أنك لا تعرف كيف تحب... الحب عندك لحظة مؤقتة، والحب عندي لحظة... مؤبَّدة.
- يا رجلًا أخطو معي خطوة واحدة في أرض الأحلام... ما نفع حب يعيش على أرض بلا أحلام؟!

■ عجزت أن أفهم ما الحكمة في أن يجتمع النقيضان ويفترق الشبيهان إلا أنها بلا شك حكمة إلهية لامتحان إيمان وصبر العبد.

■ كفاك عنادًا للقدر... عد فأنا في غيابك سماء بلا كواكب... أرض بلا نبات... شجر بلا ثمر... عد... ودع كواكبي في سمائي تسطع... ونباتاتي في أرضي تطلع... وثمراتي فوق شجري تينع!

■ سيدي:

أرجوك... حبك بعثرني... قبلك أنا امرأة بلا هوية، اليوم حبّك هويتي.

سيدي:

حبّك بعثرني... وبعثر خواطري وفكري...

رجاء سيّدي... هل لك أن تجمعني وتجمع خواطري وفكري؟

رجاء سيّدي... هل لك أن تجمعني وتجمع خواطري وفكري؟

■ سيدي:

أرسمك اليوم بريشة ثملة لا أحاول أن أُخرس حروفها... ولا أسعى إلى أن ألجم كلماتها... ولا أفكر أن أَئِدَها. تركت كل ما في قلبي ينسال رقراقًا عبر قلبي، يرصع أوراقي بحب مقطوف من عناقيد شوق، عصارتها شهد وسكر، وعسل حضرمي...

■ سيدي:

أريد أن أبعث لك بكلام... يحكي عن مشاعري... ولكني أقف عاجزة، فأنت يا سيدي أكبر من كل الكلام.

■ سيدي:

ذكيّ جدًّا الرجل الذي يطرق باب قلب المرأة... بوردة.

غَلطتي أنّي أحبَبتك

■ غضبه ما زال مترسخًا في ذهنها... عصبيته ما زالت تقضم إحساسها... إعلانه لضيقه من حبها ينال كرامتها... تهاوت كلماته كالمعاول تهشم رأسها... كالمطارق تدق أفكارها... عبارات النقد اللاذعة سكاكين تمزق وتذبح شرايين الشوق والهوى في قلبها...

جلست أمامه مذهولة... جاحظة العينين... تنصت إليه غير مصدقة واقعه وحقيقته... ويح عمري... ما أفظع أن تفجع في أخلاق عزيز غال... هل أصبح حبها الكبير له... في نظره تهمة تحاسب عليها... هل الشوق والحنين والانتماء وصمة عار في حقها تعاقب عليها...

هل الحب الكبير الذي لا يعرف الحدود غلطة؟ وهل هذا جزاء قلبها المحب المعطاء؟! لقد وهبته قلبًا بكرًا ما عرف الحب سوى

معه وله... ما زالت تذكر يوم ركع أمامها في بداية مشوارهما... يومها قال لها بصوت ظنت أنه صادق... وما هو بصادق... قال: عرفت الكثيرات وليتني ما عرفت أحدًا قبلك... إلا أني لم أحب ولم أفتن ولم أتلهّف على أحد سواك.

إني أهبكِ قلبي فاجعليه سجينًا في هواك...

صدَّقته... ليتها ما صدقته... فتحت له قلبًا كان موصدًا... يخزن مشاعر وعواطف حبيسة في أعماقها... فالعاقل والحكيم يسجن مشاعره ويبخل بعواطفه، لا يهبها إلا لمن يستحقها... ممن يقدّر معنى الهوى... وقيمة الهوى... لكن... إيه! غلطة العاقل بألف غلطة... وكبوة الحكيم بألف كبوة... لقد أخطأت الاختيار... وهبته حبًّا بل حدود... وبلا حواجز... وبلا قيود... تركت حبه يتغلغل في ثنايا عمرها... في ذرات مشاعرها... يتقمصها... راحت تغدق عليه حبًّا واهتمامًا... فشعر بها مَن حولها... قالوا لها: تمهّلي... ما دهاك... أواثقة أنه يستحق منك كل هذا الحب وهذا الاهتمام... أنت في حبك هذا لست من هذا الكوكب... ولست من بشر هذا الزمان...

إلا أنها لم تسمع لصوت العقل، ولا لنصائح الأصدقاء... نبضات قلبها هي التي سيّرتها... ورغم أنها كانت تشعر به يومًا بعد يوم يتغير... يتبدل... يفتر... إلا أنها كانت تكذِّب عينيها... أحاسيسها... لتصدق خيالها واندفاع جنون قلبها... وفجأة... بدا كل شيء واضحًا جليًّا أمامها... جاءها ضجره من حبها رويدًا رويدًا... فكبر صبرها عليه شيئًا فشيئًا... إلى أن أتى اليوم وواجهها بواقعه اللاهي... هو يعتبر الحب حصارًا وقيدًا، وهو ما اعتاد الحصار أو القيود...

جلست أمامه... تركته يُخرج ما في أعماقه... تنصت له... ثم وقفت ونظرت إليه، بنظرة باكية وقالت: أتغضب لأني لا أعرف فن التقسيط في العواطف؟! أتغضب لأني أتعامل معك على أنك المخلوق الواحد الأوحد في عمري؟! أتغضب لأني اعتزلت الجميع وأصبحت أنت شغلي وشاغلي... أنا لم أخدعك بواقع عظمة حبي... ولكن أنت الذي خدعتني بواقع كذب حبك... أنا لم أظلمك بثبات عواطفي... ولكنك أنت الذي ظلمتني بتقلبات عواطفك...

أحمد الله... كرمي في العطاء فضح بخلك في الأخذ... حبي الكبير فضح حبك الخَدَّاع...

سيدي... أتريدني أن أعتذر وأغيّر خططي في الحب والعطاء... إني آسفة... لن أقول لك سامحني لأني أحببتك بذاك التدفق والعطاء... لن أقول لك... اغفر لي وعد إليّ وسأهبك الحب بالقطارة... قطرة قطرة... كما يفعل البخلاء!

آسفة سيدي... هذه أنا وسأبقى كما أنا... أحب إلى آخر ذرة فيَّ... وأنتمي إلى آخر ذرة فيَّ... أنا امرأة عندي الحب لا يعرف الحدود ولا السدود ولا القيود!

وخرجت مسرعة... وأوصدت الباب وراءها... تركته غير آسفة... تركته تعلمه أيامه... يأكله الندم... يبعثره الضياع... أما هي فقد رأت العالم حولها مكتظًّا بالبشر فلم تعد تذكره... ولا تذكر هواه!

حقًّا إنا بكت أنهارًا... وناحت رعدًا... إلا أنها بعد ذلك وقفت شامخة... أعطته ظهرها هو ورفيقه الزمن الغادر... مشت مبتعدة لا تنظر وراءها... فلا ينظر وراءه سوى الفاشل

الضعيف... أما هي فقد أطلقت عواطفها المخزونة في أعماقها في ضحكة مدوّية... أطلقتها تشق عباب الفضاء... تضيع في الهواء... عواطفها عميقة... صادقة... مخلصة... وفية... ولا يوجد من يستحقها في هذا الزمن الذي لا يعرف الحب ولا المثل ولا الأخلاق!

هذه المعاني لإيليا أبو ماضي أهديها للقارئ الكريم:

وزّعتُ نفسي في النفوس محبّة

لا شاكيًا ألمًا ولا متضجرًا

ومشيت في الدنيا بقلبٍ يابس

حتى لقيتُ أحبّتي فاخضوضرا

قد كنت أحسبُني كيانًا ضائعًا

فإذا أنا شخصٌ يعيش مكرّرًا

مسك الختام

■ قال لها: أعترف!

صوتك بجدارة ألغى كل الأصوات... وطبع صورتك في الذاكرة... وحفرها على جدران القلب... فأصبح النبض لك وحدك... واعذريني!

أجابته بصمت هو أعمق من كل الكلام!

مَراسيم دفن غالٍ

■ واتَّشحت بالسواد... كان الفقيد حبيبًا... بل كان أحب حبيب... كان الفقيد عزيزًا... بل كان أعز عزيز... ارتدت ثوبًا أسود... ووضعت حول كتفيها شالًا أسود... كتفاها كانتا ترتعشان... ليس بردًا... بل وهنًا... وضعفًا... وألمًا من وقع الفجيعة... فليس سهلًا أن نودّع النبض الذي به نحيا... ليس هيّنًا أن ندفع الذات... ولكن ما بأيدينا إن كان هذا قدرًا مكتوبًا علينا أن نحياه.

وضعت نظارة سوداء تخفي وراءها عينيها فتداري دموعها عن عيون الفضوليين، وتخبئ خلفها أسرارها عن عيون المتسائلين... نظرت إلى الفقيد في تابوته نظرة الوداع الأخيرة... لم يكن معها أحد في الغرفة سوى الفقيد الغالي الذي لن يشيّع جثمانه أحد سواها... حملت التابوت الخشبي الذي وضعت فيه رسائله...

صوره... هداياه الثمينة... والرخيصة، كل شيء منه وضعته في هذا الصندوق الذي اعتبرته تابوتًا، وفي زاوية مظلمة تمدد الفقيد ساكنًا هامدًا... لقد ألقت به... ألقت بقلبها بعد أن انتزعته من صدرها وبترته لتدفنه مع هذه الأشياء... هذه بقايا ما عادت تخصّها لأن صاحبها ما عاد يخصها ولا يعنيها... ما فائدة الاحتفاظ ببقايا من لم يحفظنا؟

كان قلبها في نزاعه يدمي... كل شريان فيه ينزف... يتأوه، كل وريد فيه يتلوى، يتألم... فينبض ببطء شديد، قلبها المحتضر المسكين بجانب بقاياه يلفظ أنفاسه الأخيرة لكنه راضٍ مستسلم... لقد خيّرته بينها وبين بقاياه وذكراه... فاختار هذا القلب الأرعن أن يُدفن مع البقايا... عوضًا أن يدفن في جسد محنط... فيكون قلبًا عاطلًا عن العمل ويتهم بالنبض، يتهم بالحياة.

وقفت تراقب قلبها في احتضاره بعيون متحجرة جبارة... عجبي كم الظلم والغدر يخلقان فينا القسوة والجبروت حتى ونحن نودع أعز الأحباب... ولم يطل انتظارها، رأت قلبها يرتعش ارتعاشة

خافقة... خفيفة، ثم ارتعاشة شديدة الانتفاضة، تبعتها صرخة مبحوحة مكتومة... وفي انتفاضته ارتفع وهوى محتضنًا بقاياه... رأت أول مرة في تاريخها قتيلًا مضرَّجًا بالدم، ساجدًا يُقَبّل ويحتضن أقدام قاتليه، فصاحت: «يا حسرتي على القلوب المفطورة على الحب والإخلاص والوفاء».

أغلقت الصندوق وحملته ويداها لا تقويان على حمل حتى عروقها... ومشت بخطوات ثقيلة مشلولة... وكأن قدميها مغلولتان إلى الأرض، اتجهت إلى الشاطئ، لتنهي هناك مراسيم الدفن والعزاء... بأسرع وقت وكأن شيئًا ما كان...

وأمام البحر فوق الرمال... جلست القرفصاء، رأسها متّكئ فوق ركبتيها وتضم إلى صدرها الصندوق الذي يحوي جثمان العزيز الغالي مكفَّنًا ببقاياه.

يا موج البحر تسلل بهدوء... كل موجة فيك يا بحر مهزومة موجوعة، كيف لا وكل موجة شهدت مولد ونضوج وتألق الفقيد، واليوم ها هي تحمل وليدها لتدفنه في طياتها في أعماق بحورها التي ليس لها قرار... ورويدًا رويدًا حمل الفقيد فوق أيدي الأمواج، كل

موجة تدفعه بهدوء لموجة أخرى، فحملوه بعيدًا بعيدًا حتى توارى واختفى عن الأنظار... انتهى كل شيء وعادت صامتة شامخة إلى قوقعة صبرها... إلى بروج عزلتها إلى عالم اللا شيء.

وسرعان ما كسرت الشمس أشعتها وغابت قبل موعد غروبها. فبعد غياب الحب من فوق سطح الأرض، إشراق الشمس أضحى عبثًا، والغيوم تجمعت وتلبّدت فتجهّم وجه السماء، صفاء السماء اليوم مهزلة... فحينما يرتدي الكون بأسره ثوب الحزن على ذاك الرجل لا بد للسماء بعظمتها أن تكفهر وترسل رعدها وبرقها وعواصفها وزوابعها وأمطارها... لا بد للأرض بصلابتها أن تفجر براكينها وتزلزل زلازلها، وتبتلع في جوفها كل ما فوقها وهي تصرخ ساخطة ثائرة:

«إذا مات ذاك القلب المحب العظيم ودفن في الأعماق، واختفى من تحت السماء، فلا فائدة من بقاء كل الأشياء، لا فائدة من بقاء كل الأحياء».

مسك الختام

■ ليت كل هؤلاء الغزاة لك يا ذاك القلب يعلمون أن مكانك في الصدر وبين الأضلع أجوف... أجوف... ليتهم يعلمون أنك قد ذبحت ودفنت منذ زمن طويل... زمن «قبل الأزمان».

مَارِد الانتصار

في غياهب الأحلام سجّلت لي موعدًا

وأخلفت بعد يقظتي موعدي

في قمم السّحاب شيّدت لي بروجًا

وهدمت ذات يوم بروجي

فجعت القلب من سراب الأمل معك

فذرفت الدمع على أطلال وهم الحب فيك

وأدركت بعد فوات الأوان...

أنك مشوار لا طريق له...

وأنك طريق لا هدف فيه...

غريب وغريبة...

غريب وغريبة شاءت الأقدار...

أنا وأنت أن تجمعنا...

غريب وغريبة اجتمعنا في غير المكان وغير الزمان...

ما لبثنا أنا وأنت أن افترقنا...

أشدّ غربة... أشد وحشة

كأننا حتى ما تقابلنا

ولا كلمة واحدة معًا تبادلنا...

حينما اجتمعنا شاءت الأقدار أن تجمعنا...

أما حينما افترقنا

كانت مشيئتك هي التي فرّقتنا...

ما ندمت... ما ندمتُ عليك...

فلست أنا من تندم...

على الشفاء

على الصحوة

على اليقظة

لكني تمنيت لو أنه ما جمعنا...

لا مكان ولا زمان

ولو أنه ما ضمّتنا...

لا أرض ولا سماء

تمنيت لو استطعت أن أرد عجلة الأيام...

وأمحو من خاطري ذكريات كل ما كان...

كل ما كان!

وبعد القطيعة...

وبعد الفراق...

استوطنني الألم

واستعمرتني الآه والأوجاع

ودمّرتني فجيعة الغدر

وحطّمني هول الخداع

ونشبت بيني وبين زيف الخيال فيك

حرب ضروس... في نهايتها

انتصر وضوح الرؤية لوقعك البرّاق

وأيقنت أن الرجل الذي أحببته ليس أنت...

ليس أنت الذي أراه أمامي...

في نهاية المشوار...

نظرت إليك... فإذا بي أرى الصدق في عواطفك

نوعًا من أنواع المزاح

والإخلاص في مشاعرك...

خديعة كتلك التي يمارسها السحرة والمشعوذين...

فهزئت من مراهقة مشاعري

يوم استعبدتَها بحديثك الرّنّان

وسخرت من سطحية جروحي...

يوم استنزفتها بحنانك الكذاب

فانتزعتك بسرعة من صدري كما ننتزع الأشواك

وبترتك بجنون من فؤادي قبل أن يسري سمّكَ في بقية الأعضاء...

وشُفيت... معجزة إلهية

أني شفيت من هواك الفتّاك...

ومرت الأيام... ودار الزّمان

وإذا بها تعيدك لي...

راكعًا!

راجيًا!

واعدًا أن تفي المواعيد

وتبني الآمال...

وتحقق الأحلام...

وقهقهَ مارد الانتصار في صدري...

وآه ما أقواه من مارد جبار!

إذ ثار وانتقم لا يفرق بين الأحباب والأعداء...

وصحت بك:

إني أرفضك... إني أرفضك

وتركتك غير نادمة

تركتك وأنت نادم... متحسّر

تطلب السماح... تطلب الغفران

على كل ما فعلته بي...

يوم أحببتك

يوم كنت أحسب أنك في حياتي

أغلى إنسان... وأعز إنسان...

مسك الختام

■ تهشّم القلب... وتداعت أركانه واهتزّت أساساته فعلّقت على باب القلب باقي أيام العمر لائحة مكتوب عليها «مغلق بداعي الإصلاح والترميم».

أنسَاك... كيف أنسَاك!

كل ده كان ليه لما شفت عينيه

حنّ قلبي إليه وانشغلت عليه

وانساب في سمعها صوت «عبد الوهاب» حزينًا متوجّعًا يشدو بهذه الكلمات الرائعة... وعادت الذكريات تهدر في فكرها... عادت الصور والأحداث تتابع أمام ناظريها... تذكرها بذكرى أول لقاء بينهما...

قبل ذاك اللقاء سمع عنها الكثير... وسمعت عنه الكثير... فقد جمع بينهما الفكر... وها هما في ذاك اللقاء وجهًا لوجه... يداها في يديه... والدهشة قد علت وجهها ووجهه... وقفت ووقف في حالة لا وعي... ينظر إليها وتنظر إليه... يتأملها وتتأمله... يومها... هو أسره سحر جمال عينيها... وهي أسرها صدق وحرارة

كلماته... يومها... أسره الحزن الدفين في أعماقها... وهي أسرتها ثقته بنفسه.

في ذاك اليوم... لا هي... ولا هو... علما ما كان يخبّئ لهما القدر... وأي قصة حب محموم وعشق مجنون سيعيشان دون سائر البشر.

في ذاك اللقاء... لثم يدها بقبلة حنونة هادئة... وجاءها صوته دافئًا صادقًا يوقظ مشاعرها من قيلولة طالت... قال:

- مرحبا بسيدة السيدات... وأحلى الحلوات...

رفعت حاجبيها متعجبة... مستنكرة المبالغة... فاستدرك وأكمل حديثه بثقة شديدة برأيه متمسكًا به التمسك باليقين:

- في نظري! أليس من حقي سيدتي أن أحكم على ما يخصني من خلال نظري ومشاعري؟

ابتسمت راضية مقتنعة بوجهة نظره... فأباحت له ذاك الإطراء والمديح لقوة حجّته... وطراوة أسلوبه في الدفاع عن كلامه والإقناع به... وهذه ميزة تندر بين الناس...

ومنذ ذلك اليوم كان لحديثه في نفسها مفعول الدواء في جسد العليل... يهدّئ توترها... ويسكّن أوجاعها...

لا أدري كيف يغفل الكثيرون عن سحر الكلمة ومفعولها في النفس البشرية!

نعم لقد سمعت منه أحلى الكلام سمعت منه كلام غزل وشوق وإطراء أحلى من «العسل الحضرمي» فبنت معه قصورًا من السعادة أعلى من «ناطحات السحاب».

منذ ذاك اليوم تعلمت منه... كيف تُحوّل الدمع إلى ابتسام... الحرمان إلى عطاء... اليأس إلى أمل... الصبّار إلى ورد... فمعجزات الحب الصادق... تحويل الظلام إلى نور... تحويل الليل إلى نهار... تحويل مسيرة خط الحياة من درب الأحزان إلى درب الأفراح!

موانئ حياتها بقيت زمنًا طويلًا بلا أرصفة... إلى أن أتت مراكب حنانه وغزت بعطفها شواطئها المهجورة... فضجت حركة الحياة فوق رمالها... وأضاءت أنوار الأمل قناديلها... صحاري عمرها بقيت زمنًا طويلًا قفارًا... إلى أن أتت قوافل حبه...

ففجرت بدفئها واحاتها الخضراء... فعادت ركبان الفرح تضرب في مناكبها...

ومرت أيامهما معًا... كقصص الخيال... كالأساطير... لم تكن هي «شهرزاد» ولم يكن هو «شهريار»... إلا أنهما عاشا ليالي «ألف ليلة وليلة» دون أن يفتعلا الأحداث ويختلقا المبررات للاستمرار... فما كان بينهما كان أكبر من مفهوم إنس أو جان!

لكن آه... وألف آه من غدر الزمان... الذي لا يستقر بنا أبدًا على حال...

وعاد صوت «عبد الوهاب» إلى مسمعها:

«غاب عنّي بقا له يومين»

وانثالت دموعها من مقلتيها تعلن القهر والوجع فوق خديها... لا... لا... لم يغب قط عنها يومين، كانا دائمًا... دائمًا معًا... أما الآن فقد غاب عنها وغابت عنه.. بدل اليومين... أيّامًا وأيّامًا... هجرها وهجرته... لكن يومًا واحدًا... ساعة واحدة... ثانية واحدة... هي لم تنسه... كيف تنساه!

كيف تنسى من لولاه ما عرفت جمال الفجر وروعة صمت نقاش الأحبة الناطق في العيون!

كيف تنسى من لولاه لما تفجّر إحساسها وذاب جمودها... ونطق فكرها... كيف تنساه وهي من خلاله تفكر... كيف تنساه... كيف تنساه؟ محال... محال أن تنساه!

مسك الختام

«سنوات الوصل في حساب المحبين

ساعة... وساعة الهجر في حساب المحبين سنين».

كل لحظة وأنت بخير

■ سامحوني... كل ما قدّمت هراء في هراء! سامحوني... كل ما كتبت غباء في غباء... لا الحب مذهبي ولا الغرام مبدئي... إنما كنت أنسج كل الذي قلت وكتبت من خيوط الخيال... سامحوني... قد بعت واشتريت الأفكار والكلمات من سوق النخاسين وبأزهد الأثمان، وادّعيت الإيمان والمعرفة بعالم الحب والهوى... ادعيت ما لا علم لي به... فما الحب والهوى بالنسبة إليّ إلّا وهم من الأوهام!

اليوم يطلّ عام جديد عليّ... وقد تعبت من الكذب وادعاء الحب والتعمق في أعرافه وأصوله... تعبت من إيهام البشر أن الحب غيث ومطر... وأنه نعمة من نعم السماء.

اليوم يطلّ عام جديد عليّ فأقص أهدابي التي أجلستك فوقها سنين طوالًا... فلم أعد أتمكن من أن أرى أحدًا سواك...

أقص أهدابي لأستطيع أن أرى الدنيا من حولي... وأرى حال نفسي التي أضعتها حين أدمنت هواك... فأنا أجدني من وجع التجربة مجبرة أن أنكر عواطفي... أسحق مشاعري... أتجاهل أنوثتي وأشعل الحرائق في أوراق رومانسياتي... وأصيح للعالم أجمع أن الحب لعبة البُلهاء.. والحب ما خلق إلا للضعفاء... وأنا امرأة خلقت من حديد وليس من صلصال... ولست امرأة هشة يغريها كلام الحب وكلام الحرير... كلام الأحلام...

إني امرأة كحجر الصّوّان في قسوتي... وكشَوك الصبار في ملمسي، إني امرأة لا أعتنق مذاهب الحب ولا أمشي في دروب الهوى، فقد تجاوزت عمر مراهقة العواطف والحنين والأشواق... إني امرأة تعديت مرحلة الشعور بآلام النوى والفراق...

أرأيت ما فعلت بي؟ كيف حوّلت ليالي أعيادي إلى أحزان وأتراح... أرأيت ما فعلت بي؟ ... كم بدّلتني... كم غيرتني... ها أنا أكذّب نفسي بنفسي... أسحق مبادئي... أكفر بمذاهبي!

كل هذا بسببك أنت يا من علمتني أدب الغرام... ها أنا أكفر بالغرام، ها أنا اليوم، وبعد فوات الأوان أكتشف يا حسرتي أنك لم

تكن أبدًا على مستوى إخلاصي وعظمتي وفكري... وخسارة ألف خسارة على كل لحظة أضعتها سدى أفكر فيك... أفكر في هواك.

اليوم... كل من عرفك وعرفني... وشعر بعظمتي وعمقي... وقارنها بالقشور التي من أجلها بعتني... لا يلومك أنت بل يلومني أنا وحدي... عيون كثيرة... شفاه كثيرة تراقبني... تعاتبني... تسألني لماذا أنت... اخترتك... ولماذا أنت من بين البشر جميعهم أحببتك... ولماذا من بين ألوف القلوب التي حولي... لماذا أنت الذي فضلتك... وفي أبراج الحب توّجتك...

ما أشقاني! كيف لي أن أفسر ما لا يفسر... ما أتعسني... كيف لي أن أشرح ما لا يشرح... كيف أعلل استسلامي لك... ولمصابي في هواك... وتحولي إلى حائط خامس في قوقعة نواك... لا أدري... لا أدري... إني أقر وأعترف أنك كنت يومًا ما تعني لي كل شيء... كل شيء... أما بعد اليوم يا حسرتي... فأنت في حياتي لا تعني لي أي شيء... أي شيء... لا عدت لا صغيري ولا كبيري... ولا عدت... لا قليلي ولا كثيري... ولا عدت... لا

راحة نفسي ولا استراحة ضميري... ما عدت أي شيء يخصني أو يعنيني يا وجع عمري وسنيني... وكل ما يمكن أن أقول لك الآن في منحى الوداع... وفي ليالي الأعياد... كل عام وأنت بخير... بل كل لحظة وأنت بخير.

مسك الختام

■ سيدي

هرمت وشاخت مشاعري... فرد عليّ بكلمة حب ولمسة حنان... طفولة ومراهقة مشاعري.

«لو... لو... لو»

■ لو كنت تستطيع أن تكون على مستوى جنوني... وتغوص معي في أعماق فكري وترتفع معي فوق سحاب خيالي، وترى الكون مثلما أراه من ارتفاعي، وتحاصر العالم من جميع جهاتي، وتنفذ إليه في أغواري، لو كنت تمارس الفكر والأدب والقلم، وتعشق الليل والسهر، وتقدس المغيب والشروق، وتفهم معنى الشوق والهوى.

لو كنت أنطق أنا الكلمة فتُكمل أنت الجملة، وأشعر أنا بالفرحة فتعلو على وجهك أنت البسمة، ويداهمني أنا الحزن فتنهمر من عينيك أنت الدمعة... لو كانت مرافئك لا ترسو فيها سوى سفني، ومظلة فكرك لا يحتمي تحت ظلها سوى قلمي، وحنان صدرك لا يلجأ له سوى قلبي.

لو كنت أنا قمَّة كل شيء في حياتك، والرقم الأول والمتسلسل والأخير في أرقامك وبداية ونهاية أحلامك وآمالك، لو كنت تفهمني عُشر ما أفهمك، وتعطف عليّ عُشر ما أعطف عليك وتحميني عُشر ما أحميك.

لو أدركت أني في عشيرة النساء امرأة مميزة وأني في قاموس العواطف والمشاعر أتصدر جميع فهارس المعرفة، وأني نبع عطاء لا ينهل مني إلا من يستحق أن يصبح نبعي ومصبّي.

لو فهمتني لامتلكتني، لو فهمتني لما خسرتني، لو فهمت نقطة واحدة مما ذكرت لما انتهينا كأننا ما ابتدينا.

مسك الختام

■ وأهداها خاتمًا من العقيق وقال لها: العقيق يبعد الضيق وفرّقت بينهما الأيام... والآن كلما نظرت إلى خاتم العقيق في إصبعها صاحت متوجعة: آه لو تدري... لو تدري أني في ضيق ما بعده ضيق!

«شيء ما فيك وفيّ»

شيء ما فيك يجذبني...

شيء ما فيك يناغشني...

شيء ما فيك يقيدني...

وأشياء كثيرة كثيرة فيك...

تقول لي.. تهمس ليس:

أنك تحبني... تحبني

«وكل عام وأنت بخير»

أقرأ حبك لي في عينيك

وأشعر بحنينك في همس من بين شفتيك

وأحس بشوقك في لمسة من يديك

ويأتيني صوتك:

«سيدتي صباح الخير»

سيدتي «كل عام وأنت بخير»

أغطي وجهي

أغمض عيني

أبتسم... وأرتعش

أعض شفتي

أداري ارتباكي

أشغل نفسي عنك بك

وأهمس لنفسي بكل أنوثتي

شيء ما فيه يجذبني

شيء ما فيه يناغشني

شي ما فيه يقيدني

وأشياء كثيرة كثيرة فيه

تقول لي... تهمس لي...

أنه يحبني يحبني

«وكل عام وأنت بخير»

أنفض غبار السنين...

والحزن والأنين

أمسك قلمي... قبل أن أحركه يحركني

أبحر في بحرك

أحلّق في سمائك

حروفي ترقص مهلّلة فوق ورقي

كلماتي تزغرد أمام عيني

جُملي تحكي عني... تبوح بسرّي

يزداد ارتباكي... أغرقُ في حيرتي

أختم بالصمت فمي...

أختبئ في مشاعري...

إلا أني أعود... أُسِرُّ لقلمي

وأنا واثقة أن قلمي أعجز من أن يكتم سري

أوشوشه: يا قلمي

السهر الآن له معنى وأي معنى

الرنين له لهفة ما بعدها لهفة

مغرمة أنا به إلى نخاع النخاع

مقيدة أنا به إلى قاع القاع

يا قلمي، شيء ما فيّ إليه يجذبني

شيء ما فيّ... فيه يناغشني

شيء ما فيّ... به يقيدني

وأشياء كثيرة كثيرة فيّ

تقول لي... تهمس لي

أنا أيضًا أحبه

كما يحبني... كما يحبني

«وكل عام وأنا وهو بخير»

فرس بريّة عجزت الأيام أن تروضني...

يوم ريح... ويوم نسيم

يوم حرب... ويوم سلام

يوم انكسار... ويوم انتصار

يوم ارستقراطية... ويوم بوهيمية

يوم عسكرية... ويوم رومانسية

تقلباتي وأمزجتي

أتى حبك في لحظة واحدة

جميع صفحاتي الماضية مزقها

أخضعني...

روَّضني...

فلا عدت أنا... أنا

ولا عدت أنت... أنت

طفل وطفلة أنت وأنا في هذا الحب غدونا

طفل وطفلة أنت وأنا فوق جناح الأحلام معًا رحلنا

طفل وطفلة من هذا الحب خلقنا

وأهمس لك وتهمس لي:

شيء ما فيك وفيّ يجذبنا

شيء ما فيك وفيّ يناغشنا

شيء ما فيك وفيّ يقيدنا

وأشياء كثيرة كثيرة فيك وفيّ

تقول لنا تهمس لنا:

بالحب اجتمعنا...

بالحب توحدنا

بالحب نقول... نهمس:

«كل عام ونحن وكل الأحبة»

في خير

في سلام

في حب

في انتصار

من أعماق الأعماق»

مسك الختام

وأختتم مسك الختام بك فأنت مسك المسك... أنت مسك ختامي...

السّيرة الذَّاتية

انتصار منصور العَقِيل

كاتبة سعوديّة وُلدت في جدّة عام 1951م. حصلت على الشَّهادة الثّانويّة من بيروت عام 1967م، تكتب المقالات الاجتماعيّة والرّوايات والقصص القصيرة.

مؤلَّفاتُها:

1 - فيروس الحبّ، مقالات أدبيّة وخواطر وجدانيّة، دار انتصار، للنشر والتوزيع، ط1، 1988م.

2 - موانئ بلا أرصفة، ط1، 1989م.

3 - من تحت الرّماد، ط1، 1993م.

4 - هجرة القوارير، ط1، 1993م.

5 - دفء البَوح، دار الانتصار، ط1، 1994م.

6 – أنا والحمد لله، مقالات، دار الانتصار، ط2، 1994م.

7 – قد نختلف، مجموعة مقالات صحفيّة تدور حول قضايا اجتماعية مختلفة، دار الانتصار، ط1، 1996م.

8 – التَّسَكُّع في حجرات القلب، دار الانتصار، ط1، 1997م.

9 – خمسة حريّة، دار الانتصار، ط1، 1999م.

10 – شروخ في بؤبؤ العين، قصص قصيرة، دار الانتصار، 2000م.

11 – أحبُّك حتّى الثُّمالة، دار الانتصار، 2003م.

12 – الهجرة إلى الوطن، مقالات وطنيّة، دار الانتصار، ط1، 2003م.

13 – أَنسنة الإنسان، مقالات وجدانيّة، دار الانتصار، ط1، 2005م.

14 – حرملك الحادي والعشرون، من جعبة قضايا المرأة، دار الانتصار.

15 – حبّ على الهَوا، مركز الأهرام للترّجمة والنّشر، مؤسسة الأهرام، ط1، 2008م.

15 – حين تهطل السّماء دموعًا، رواية، دار النّخبة، بيروت، ط1 2009م.

16 – أشجان الأفراح، رواية، دار النّخبة، بيروت، ط1 2009م.

17 – وجدانيات (فيروس الحبّ – دفء البَوح – أُحبُّك حتّى الثُّمالة)، 2019م.

18 – مَولويّة عِشق (سِيمازا – مَولويّة عشق)، دار تكوين، السّعوديّة، 2023م.

وقد كُرِّمت من عدّة جهات؛ ومنها: إثنينيّة عبد المقصود خوجة سنة 2014م، وفي شهر 12 من عام 2018 فازت بجائزة (الآداب والثّقافة) في جائزة المرأة العربية السّنوية في لندن.

الفهرس

الإهداء 5

تقديم 7

انتفاضة عقل..... 31

«حبيبة» 33

سيدتي الطبيبة 39

حب بلا اختيار..... 47

... وعشقت الحجارة..... 53

إني أرفض هذا الزواج..... 57

أنين الظلم..... 63

الأمومة الثكلى..... 69

الوفاء مَا بين الأسطورة والواقع..... 75

هب... على هذه العقول! 79
لبنان... يا عروس ورق المربى! 85
زنزانة من ذهب 91
الهُروب في درب الأعمار 97
وكالة أنباء القيل والقال المتجولة 103
ويحك الليلة ليلتي 107
حديث الوسَادة 113
ولك كل الرضىٰ حتى ترضى 123
أبهَانورة 129
الرجل السَّاقط 135
انتفاضة عقل 140
نزيف فكر 147
رحلة في الأعماق 149
فيروس الحب 157

نزيف فِكر..... 161
الأحزان في مخاضها لا تلد سوى الأحزَان 165
كفر ضرب الميت! 170
حَبَّة اللؤلؤ..... 175
القلب دكان ولكل حبيب مكان 179
مركاز الحب **185**
مركاز الحب 187
أدمنتك..... 193
مرسُول الحب 197
السَاعة العَاشرة..... 201
بوصلة الحب..... 205
غرباء 209
مطلوب قلب للإيجَار 214
أفق يا قلب..... 221

خوَاطر مبَعثرة 225
غَلطتي أني أحبَبتك 229
مَراسيم دفن غالٍ 235
مَارِد الانتصَّار 241
آنسَاك... كيف أنسَاك! 247
كل لحظة وأنت بخير 253
«لو... لو... لو» 257
«شيء ما فيك وفييّ» 259
السّيرة الذَّاتية انتصار منصور العَقِيل 267
الفهرس 271